البديع العربي

المجلس الأعلى للثقافة

الإدارة المركزية للشئون الأدبية والمسابقات

مرثت البربري

قنطرة إلى آباي

قنطرة إلى آباي

مرثت البربري

رواية

اسم العمل: قنطرة إلى آباي
اسم المؤلف: مرڤت البربري
التصنيف الأدبي: رواية
الناشر: المجلس الأعلى للثقافة
الطابع: دار البديع العربي

رقم الإيداع: **2024 - 4683**
الترقيم الدولي: **978-977-92-3026-9**

تصميم الغلاف	**إخراج فني**
منى شومان	**دار البديع العربي**

002 - 01061635162
002 - 01503570075
ranyhmtwlyblat@gmail.com

إهـــداء

إلى .. كل من خذلني فمنحني دفعة للأمام

إلى .. كل من آمن بي فأخذ بيدي إلى النجاح

إلى .. من اتفق أو اختلف معي

إلى .. حب يملأ عمري نوره

مرڤت البربري

-١-

في أحضان قارب يترنح بين حنايا النهر الشاب، كعاشقة ترقص بين ذراعي معشوقها، يصنع له المراكبي كوب الشاي ويترنم على رجع شدو صوت عبد الوهاب، وهو يناجيه، مسافر زاده الخيال والعطر والسحر والظلال ..

يقلب وجهه ذات اليمين وذات الشمال ثم يوليه شطر القمر النائم فوق مخمل الليل الأسود، قضى الوقت منذ اللحظات الأولى لهجرة القرص القاني اليومية إلى ما خلف النهر وبلاده، كعادته عندما يريد الخلوة بنفسه وروحه، يناجي ربه، ويحيا في ذكرياته، أو ليستجمع شتاته و يفكر في عمل جديد يحتل تفكيره فتنشغل به كل جوارحه، بعيدا عن صخب حياة اليابسة، كانت ليلته القمراء تأخذه إلى ذكرياته مع والده وحكاياته عن نشأته في مدينة السويس، طالما كانت هذه الذكريات ملهمته، كان يأخذ المركب قبيل الغروب بعد أن ينهى خليل صديقه المراكبي آخر نقلاته إلى جزيرة الوراق فبعد الغروب يقل عدد الركاب وتكون وقتها المركب خالصة لإياد، يلتقيه على شاطئ الزمالك ليقله ويجوب بها النيل حتى يقترب موعد آذان الفجر فيعود به إلى حيث المرسى بدمنهور شبرا.

أتاه صوت خليل المراكبي ليقطع عليه سيل ذكرياته ويزيح صخور أفكاره التي أثقلت رأسه مناديا:

- تفضل الشاي يا فنان.

مد إياد يده ليتناول كوب الشاي وحاول أن يعود مرة أخرى لشروده ؛ لكن خليل قطع عليه طريق العودة عندما باغته بسؤال:

- هل صحيح أن النيل (حينشف) يا فنان .. وإن حصل حنعمل إيه ونشرب منين وأنا حشتغل ايه؟ أنا ماليش صنعة غير المركب ولا أعرف غير النيل؟

أخذ إياد رشفة شاي وأتبعها بنفس من سيجارته التى اقتربت من الانتهاء ثم نفثها في الهواء مع تنهيدة أفرغت ما بصدره من دخان وبعض الهم.

- من قال لك إن النيل سيجف يا خليل؟.

أراد خليل أن يظهر بمظهر المثقف العالم بالأمور فعدل من وضع طاقيته وأمسك بطرف جلبابه ووضعه بين فخذيه وجلس القرفضاء في مواجهة إياد وقال:

- قالوا في التليفزيون والراديو "إن الجماعة اللي النيل جاى من عندهم بيعملوا سد يمنع الميه تيجي للنيل بتاعنا".

ابتسم إياد ابتسامة باهتة من لون الفرح، وتذكر حكايات والده عن السويس، أطفأ سيجارته في المنفضة التي جلبها له خليل خصيصا، وكان خليل أيضا يستخدمها ويجبر كل من يركب معه على استخدامها لأنه كان لا يحب أن يلقى بسيجارته المنتهية في مياة النيل،فقد أخبره إياد ذات يوم أن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن أول ما سيسألون عنه بعد البعث هو تلويث مياه النيل، وأنها أول ذنب يتبرأ منه المصريون فيقسمون أنهم لم يلوثوه أبدا.

- اسمع يا خليل أنا أعلم إنك تحب حكاياتي عن المصريين القدماء، وتصدقها، ألا تعلم أنهم كانوا يعتقدون أن النيل نيلان .. نيل الأرض ونيل في السماء، وأن الشمس تحيط بنيل الأرض بمراكبها وأنهم سيجدونه في الجنة بعد الموت، وهذا الكلام يتوافق مع ما هو مأثور عن نبينا الكريم ﷺ أن النيل قادم من الجنة .. فهل يجف ماء الجنة؟!
- وماذا يعنى هذا الكلام يا فنان؟

ربت على كتفيه ليمنحه طمأنينة وقال:

- يعني أن النيل لن ينتهي ولن يجف أبدا.

سأحكي لك حكاية أخرى لتعرف كيف أن الله دائما مع المصريين.

- احكِ يا فنان.

- أنت تعرف أن أصل أبي من السويس قبل أن يأتي إلى شبرا الخيمة ويجاور النيل بعد التهجير بعد نكسة ٦٧، أبى جاء بنا إلى هنا وعاد إلى السويس ليكون مع الفدائيين، حكى لي أنهم عندما حوصرت السويس في ٢٤ أكتوبر عام ١٩٧٣ و قطعت القوات الإسرائيلية المياه عن سكان المدينة وكان لا يوجد أى مصدر للمياه .. فجأة وجد أهالى السويس أن الماء تفجر من بئر قديمة كانت قد جفت، وهذه البئر كانت موجودة فى دكان بجانب جامع سيدى الغريب وكل الأهالي كانوا يشربون من البئر التى تفجرت بفضل الله.

ابتسم خليل صارخا .. مدد يا سيدى الغريب.
كان المركب قد اقترب من مرسى المعدية أمام بيت والد إياد المطل على النيل بدمنهور شبرا.
عاد إياد لشروده وتمتم وهو يربت على كتف خليل:

- أتعرف يا خليل .. لابد أن نقيم قنطرة لنصل إلى آباي

ردد وكأنه يؤكد قول إياد:

- نعم .. آباي .. آباي؟ ها هو بيت أبوك يا فنان فلماذا تقيم قنطرة وأشار إلى البيت بينما تعالت ضحكات إياد.

-٢-

سكن إياد شقه في حي الزمالك بعيدا عن بيت أسرته حيث أصبحت حياته الفنية لا تناسب الحياة مع أهله بشبرا، حيث أصبح يقيم لقاءات فنية بينه وبين أهل الفن والمنتجين وغيرهم من صُناع السينما، وكان كل ذلك لا يناسب حياة أسرته البسيطة التى أعتادت الحياة الهادئة، ولكنه آثر ألا يكون هذا السكن أبعد من ذلك ليكون رهن إشارة والده إذا احتاج إليه في أي أمر.

كانت ظروفه ككاتب بين غفوة وغفوة تهاجمه الفكرة، تغتال هدأته، وتأبى إلا أن تطارحه الكلمات، وتهاديه الحروف، فينتفض ملبيًا نداءها، ويُهرع إلى الفِراش الأبيض ليلقي عليه جسد الكلمات، بقطرات سوداء من دمع القلم.

كانت تمر عليه ليالي السهد الطوال لا تصافح جفونه بعضها إلا هنيهات قليلة، يهجر أهله وفِراشه، يعانق القلم، لا يعبأ بما يخلفه هجره لهم من لوم، ولا يُعِر صرخاتهم في وجهه انتباها، ورفضهم لما لا يفهموه من جنونه بالكتابة كان لا يعنيه، حتى وإن رفضوه، فكل هذا لا شيء، المهم أن تعرفه الفكرة، وتحتضن روحه

شخوص رواياته، ليخلق منها ومعها، حيوات أخرى، روحه نهِمة للحياة، لذلك ما كان ليضيعها في سويعات موت يدعونها نوما، يريد أن يحياها أياما وليالي يخط أقدار أصحابها بيديه .. وبقلمه ليهبهم كما سيمنحه الوهاب بها أكثر من حياة ... فحياة واحدة لا تكفيه لذلك كان لابد أن يستقل بسكن بعيد يستطيع أن يحيا به كما يحب.

دخل الشرفة تلتمس رئتاه بعض الهواء النقى فقد أصابه الاختناق عندما تذكر صاحبيه، أبدا ما كان يتصور المصير الذى آل إليه هيثم وأحمد معا - النقيضان – المتشدد وابن هواه، معا يسلكان درب الإرهاب وهو يقف متفرجا لا يستطيع إنقاذهما، بعيدان هما عنه روحا وجسدا فماذا يفعل؟

استند على سور الشرفة فتلوث قميصه بالغبار، نفض ما التقطه وجاءه صوت ضحكة مكتومة فالتفت ليجد سيدة عجوزا كانت تتحدث في الهاتف أغلقته ونظرت إليه وهي تكتم ضحكتها، ابتسم بحنق وألقى عليها تحية المساء.

- مساء الخير يا أمي.

أنزلت عويناتها ونظرت إليه من فوقها نظرة لم يدر معناها، ثم ردت السلام.

اغتنم فرصة أن وجد سيدة يمكنها أن تساعده في الوصول إلى امرأة تصلح من حال شقته، فلم يساعده البواب في ذلك الأمر عندما طلب منه ذلك ..

- ليتك تجدين لى من ترحمنى مما أنا فيه.

قالها متوسلا .

شردت لبرهة فظن أنها لم تسمعه، فالنساء في عمرها يضعف سمعهن فكرر قوله، فنهرته ..

- أتظنني لا أسمع .. سمعتك يا ولد وأفكر لك في حل، غدا ستأتينى البنت التي تساعدنى في أعمال البيت سأرسلها لك.

قال صارخا:

- لا؛ أنا لا أستطيع الوجود في البيت أثناء التنظيف، كنت أترك بيتنا عندما كانت أمي وأختى تقومان بتنظيفه.

ابتسمت وهزت رأسها وطرقت بيدها على يدها التي تمسك العصا.

- إذاً اترك لى نسخة من مفتاح شقتك حتى إذا أتتنى البنت التي تعمل عندى أخذتها لتنظفها لك.

كانت هذه الخدمة بمثابة الإنقاذ له من الإهمال الذى تفيض به شقته، دخل لإحضار نسخة من مفتاح الشقة، أعطاها إياه واستأذن ليذهب لعمله.

****

دخلت بيتى فلم أعرفه، قامت جارتى العجوز بترتيبه على أكمل وجه وأجمل ما يكون، ذهبت لأشكرها، ضربت الجرس ففتحت لى فتاة جميلة تشبه جدتها إن أزحنا عنها غبار الشيب وتجاعيد السنين، تلعثمت عندما رأتنى، عرفتها بنفسى فوجدتها تعرفني جيدا وقارئة جيدة لرواياتى، سألتها عن جدتها فأخبرتنى أنها تأخذ قيلولة؛ وستستيقظ بعد ساعتين.
بلغتها شكرى وهممت بالانصراف، لكنها طلبت رقم هاتفى لتهاتفني جدتها عندما تستيقظ.
كتبت رقمى على هاتفها وأجرت اتصالا لتتأكد من الرقم، سألتها عن اسمها لتسجيل رقمها قالت:

- مياسين ويمكنك أن تناديني ميس وهو أيضا اسم جدتي.
- اسم جميل لجميلتين ..

انصرفت إلى شقتى لأستمتع بنظافتها، ظلت ميس واقفة تتابعنى حتى دخلت، ثم أغلقت الباب بهدوء جعلنى أحاكي فعلها وأغلق الباب وأنا نصف وجهي خارجه، تصاعدت ضحكاتها وضحكت من نفسى.

*****

تركها ودخل المطبخ ليعد فنجان القهوة المسائي الذى يحتسيه في الشرفة، تهادى إليه صوت المذيعة تقول:

- تبدل حال المطرب هيثم شكري الذى انضم إلى تشكيل كتائب (مقاومة حرة) ودعا إلى نصرة الشعب السوري، وذلك استجابة لفتوى أطلقها الشيخ السلفي أحمد فاضل.

متابعة ... وقال هيثم في تسجيل الفيديو الذي تم تداوله على صعيد واسع في مواقع التواصل الاجتماعي، ثم عرضت تسجيل فيديو لهيثم وكان في هيئة مختلفة:

" أنا أخوكم في الله هيثم حسين شكرى أحب أن أخبر أهلنا، وأبناءنا ومجاهدينا الأطهار في سوريا الحبيبة من الجيش الحر، والكتائب المقاومة، والمجاهدة بأنه رداً على مجازر الكتائب الأسدية النصيرية الحقيرة الحاقدة، وعلى أيادي الحزب الطائفي المجرم، حزب "حسن نصر الشيطان" الذين يقتلون أهلنا في سوريا، نعلن عن تشكيل كتائب مقاومة حرة لنصرة أهلنا في سوريا".

وتابع هيثم الذي ظهر ملتحياً، ويرتدى ملابس جهادية، وظهرت من خلفه بندقية آلية يمسكها أحد الملثمين والراية السوداء مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله، معلناً "تشكيل كتائب مقاومة حرة، وتجهيز الشباب المسلم الذي يريد الدفاع عن أعراض المسلمات الطاهرات العفيفات في سوريا - على حد قوله- لمن أراد الانضمام إليه.

وختم قائلاً: " لذلك نطلب من كل من يريد دعمنا معنوياً ومادياً لجهادنا في سوريا التواصل معنا".

وضع إياد فنجان القهوة على طاولة أمامه وذهب يتابع أخبار صديقه.

كان هيثم ثالث ثلاثة، إياد محمود فهمي وأحمد فاضل صالحين وكان قد ظهر منذ فترة ليست بكبيرةً في مقابلة مع إحدى القنوات؛ لكن بهيئته العادية قبل أن يطلق لحيته ويرتدى الجلباب القصير، معلنا وقوفه إلى جانب الشعب السوري في ثورته ضد النظام السورى.

كما لفت إلى أنه اعتزل الغناء لأن الفن حرام وكذلك ماله، معلناً التزامه الديني، مختتماً بذلك قصة نجاح فنية حققت شهرة عالمية واسعة.

استكملت المذيعة الجميلة تقريرها وكان إياد يتابع محزونا ما آل إليه أمر صديقه الفنان-الذي ذهب إلى لبنان مندفعا- نتيجة صدمته العاطفية ثم خرج من جنوب لبنان للانضمام إلى تنظيم "داعش"، رغم أن هيثم نفى هذه الأخبار، مؤكداً أن تلك المعلومة "حاقدة" وغير صحيحة على الإطلاق.

وكان هيثم قد ظهر في صور تداولتها أجهزة الإعلام، وهو يفتتح مطعماً للوجبات السريعة كل رواده سلفيون، وكان للشيخ أحمد فاضل ظهور دائم جوار

هيثم، داعما لتوبته عن الفن، واتخذ هيثم الشيخ أحمد فاضل إماما ونصيرا.

وعند ظهوره فى افتتاح مطعمه قال إن الفن حرام، وماله حرام، ويغضب الله، وأنه يتبرأ من كل أعماله فى هذا المجال وأن الشيخ أحمد فاضل هو سبب الفضل عليه فى رجوعه إلى الطريق القويم والابتعاد عن طريق الشيطان، وأنه نصحه بتطهير ماله من خلال القيام بعمل شريف يأخذ من أرباحه ما يكفيه لسد رمقه، ويستره دون إسراف، أما عن باقى أرباحه فسوف يتبرع بها للجهاد.

ظهر التغير على هيثم مع بداية الثورات العربية، أخذ غناء هيثم شكلا جديدا، حتى في مظهره فأطلق لحية خفيفة، وقص شاربه، وغنى للبلدان التى تقوم بثوراتها، كان يقول إن الغناء الهادف لابد أن يقف بجوار الشعوب التى تبحث عن حريتها ضد طغيان الحكام، وكانت له أغنيات كثيرة لتونس وثورتها، وللشعب الليبي وللثورة المصرية، وكانت آخر أغنياته للشعب السورى والثورة السورية، وكان لإطلاق لحيته وعدم اهتمامه بمظهره والحزن البادي على ملامحه أسباب أخرى لم يكن يعلمها سوى المقربين منه.

كان لهذه الأخبار وقعها المؤلم على إياد، ها هما صديقا الطفولة والمراهقه يأخذان طريقا غير الذي

سلكه، طريقا اعتبره هادما لكل حضارة يريد هو بفنه أن يقيمها.

****

قام إلى مكتبه وأمسك بالأوراق والقلم، تتزاحم المفردات في حنجرته عندما تريد الخروج، وعندما يريد البوح بها تتلعثم الكلمات على لسانه، ويحتار السؤال على باب شفتيه، وتغلِّق شفتاه مصاريعها أمام كل الأسئلة، عندما يوشك على فك أسرها، يعرف أن أسئلته عصية الإجابة، أو ربما إجابتها من الأيسر بدرجة أن المواجهة بها أمام ضمائر الشعوب هي الأصعب، أصبح من الضرورى أن يتصدى لما أرّقه منذ كان مراهقا، بدأ في كتابة رواية هي الأصعب على الإطلاق في كل الروايات التى كتبها منذ أن عرف القلم طريق أنامله، فهي روايته أو رواية ثلاثية الأبعاد حيث أركانها هم الثلاثة الأصدقاء الأقرباء المتباعدون، كان السؤال الذي يطارد ذهنه منذ بدأ يرى مظاهر" الإسلام الصحيح " كما يدعي أصحابها تزين الطرقات حيث يسير، وكأن البلاد فى عرس للإسلام، وكل من في هذا العرس، مصبوغون بألوانه، منهم من صبغ شفتيه بشهد القرآن، كما فعل جارهم الذي ارتدى الجلباب بعد أن كان يراه

قديما في صغره أشعث الشعر مثل شطة لاعب الأهلى، أما الآن فقد أصبح الشيخ شطة كما يتندر باسمه أهل المنطقة ولكنهم أمامه ينادونه الشيخ محسن لأنه أصبح محفظا للقرآن بعدما نشر في المنطقة أنه أتم حفظه مع أحمد فاضل على يد أحد مشايخ السلفية وإمام أحد المساجد بغمرة وهو الشيخ فتحى رشيد وكان يقطع له المسافات للاستماع إليه وإلى خطبه وفى الأعياد كان لا يصلى إلا في الساحة التي يصلى فيها بشبرا أو أمام مسجده، ثم بدأ يعطي دروسا في تحفيظ القرآن لأطفال الحي، وكان أيضا يذهب لأبعد من الحي فقد اهتم الكثير من الآباء والأمهات بتحفيظ أبنائهم القرآن لدرجة أن منهم من كان يجلد الطفل جلدا إن هو لم يستطع تسميع ما حفظه من آيات، وكان لأهل إياد نصيب في التعامل مع الشيخ محسن فكانت أخته الكبرى تأتي يومين في الأسبوع إلى بيت أبيها لينال ابنها دروس التحفيظ على يد الشيخ محسن، وذات يوم بينما يجلس إياد في غرفته سمع صراخ الطفل فهُرع ليرى ما يحدث، وإذ بالشيخ يمسك سلك التليفون الأرضي ويضرب الولد حتى أحدث على جلده علامات من أثر الضرب، والغريب أن أم الطفل تسمع صراخه ولا تتحرك، وعندما هم إياد بضرب محسن لما رآه على جسم الولد، أوقفته وقالت له دعه يضربه حتى يحفظ أم تريد أن يترك القرآن ليكون مثلك؟!

لم يرُد إياد ولكنه ترك البيت منذ ذلك اليوم وآثر أن يكون بعيدا، بفكره وفنه فقد أصبح غريبا في بيته؛ فنه الذي كانت تعشقه نسمة أخته التي كانت تجلس بجواره تقرأ في رواياته التي يكتبها وكتب دراسته في الإخراج، وكانت تنبهر بأسلوبه في الإخراج خاصة بعدما التحق بمعهد السينما قسم إخراج بعد أن أتم دراسته الجامعية في الحقوق، وعندما كانت تمسك بالكامنجا التي تعلم العزف عليها حين كان صغيراً يذهب إلى الحفلات مع هيثم وجارهم والد أحمد فاضل الذى أخبره أن صوت الآلات تسبيحا، وعلمه كيف يذكر الله مع كل نغمة يعزفها،أصبح فنه عارا تعايره به الآن بعد أن تزوجت من مدرس رياضيات زميلا لها، أخذ نفس السمت الذى يتسم به المتدينون في هذه الفترة، رجوعا إلى السنة كما كانوا يعبرون عن هيئتهم من إطلاق اللحية وحف الشارب، وكان من الطبيعي أن ترتدي النقاب هي الأخرى لتليق به، ولابد للأولاد أن يرتدوا الجلابيب ويكون لبسهم البناطيل والملابس العصرية في أضيق الحدود، وكان من الواجبات الشرعية تحفيظ الولد القرآن، الغريب أنه رغم أن نسمة ومسعد معلمان إلا أنهما لم يدركا أن ابنهما مصعب - هكذا أيضا أختارا له اسما- ربما لو كان رسول الله بيننا لكان أبدله كما كان يفعل ﷺ في الأسماء المنفرة، فمن المعلوم أنه عندما جاءه- ﷺ- رجل وسأله عن اسمه

وقال له صعب، قال رسول الله له:"سهل بإذن الله"، وعندما ذكر هذه الواقعة لمسعد عندما أخبرهم أنه يريد تسمية المولود بهذا الاسم، قال له إنه لابد أن نعيد الأسماء الإسلامية بعدما طغت اسماء الكفار على أسماء أبناء المسلمين، مثل"بسنت وراما ومايا ولافي"؛ لم يطل إياد جداله وترك الأمر لهما.

***

لم يكن يعرف هل كانت حقيقة تأتي أم هي خيال حلم يعيش فيه، كان عطرها يسكن الحجرة حتى بعد أن ذبل الطيف، ويقوم من بعدها يسجل حواره معها في أوراقه، وينسج من لقائه بطيفها أفلامه.

كانا في الحب جزأين من رواية واحدة كتبها القدر؛ نَشر منها ما نشر، وطوى منها في صدر كل منهما ما طواه ما يفوق ما نشر، على أنها كانت له بعد أن طُوي الحب في قلبيهما بعد الفراق كملك وحي للأنبياء، فقد كان حبها هو إلهام رواياته اللواتي تسكنهن روحها، وكانت عيناها هما مرصده السماوى، الذي أقتطف من نورهن نجمات رواياته، كأن عينيها شجرة نساء تثمر في بريقها أبهى اللآلئ التي تنير سماءه.

كانت عيناها تشرق في سمائه فينير بهاؤها من ليله صفحات، تلمع بها الشاشة الفضية، وحين يغيب بريقها تعتم أوراقه البيضاء فلا تجد من نور الحرف ما

يشق ظلمتها، ويؤنس وحشة سطورها. هدم بالفراق ما كان فيه من عزم الشباب وقوته، فصار كهرِم يتوكأ على ما تبقى له من ذكرى لتعيد ترميم بنية روحه المهدمة، وتشد من أزر موهبته المتداعية، فتقيم بسحرها وتحفها بعنايتها، حتى صلح على ذلك حالها فنثر الجمال والحب، وولدت روحه ولادة جديدة فكانت هذه الذكرى لها بمثابة الأم، تحنو على روحه وترضعها الفكرة، فكان يرسل لها رسائل الندم مع رواياته لعلها يوما تقرؤها، أو تشاهد فصولها فتعرف كم ندم على ما اقترفته يداه فى لحظة أطفأ بها نور أيامه كالذي تخطفته الغيرة على قمر سمائه من أن يراه غيره، فمد يده وأطفأ نوره فأعتم كل لياليه.

صبَّ جام غضه على أبطال رواياته وكأنه، ينتقم من نفسه فيهم، فكان مقته لكل رجل يطفئ وهج الحب فى عمره يجعله يتمنى لو مزقه أشلاء، وأسكنه العذاب تحت سابع أراضين في آخر فصول رواياته.

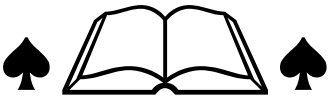

-٣-

عرفت من أخي"أبو عمر" أننا سوف نهاجم معقل "الإيزيدية" ؛ ولم أكن أعرف من هم"الإيزيدية"، ولا ماذا تعني هذه الكلمة، فسألت "أبو عمر":

- من هم"الإيزيدية"هؤلاء؟ ولم نحن سنهاجمهم؟ هل هذا الاسم هو اسم قرية أو مدينة أو ما شابه؟

كان ممن درس مقارنة الأديان، وعلى علم بكل الديانات التى تنتشر فى أرض العراق، فهو ليس مثلى حديث العهد بالتنظيم فقد كان فى التنظيم منذ أن بدأ بتنظيم القاعدة حتى وصل إلى آخر صوره ؛ وهي تنظيم الدولة الإسلامية فى العراق والشام ؛ وحتى من قبلها فقد عاش سنوات في صغره فى الكويت مع والده الذى كان يعمل مدرسا للتاريخ فى مدارسها ؛ وقد كان معارا من قبل وزارة التربية والتعليم المصرية، وكانت أمه طبيبة؛ ويعرف الكثير عن المنطقة.

فقال بعدما التفت لى مبتعدا عن شاشة الكمبيوتر:

- يا أخي أبا منذر "اليزيديون" هؤلاء أو "الإيزيديون"(بالكردية ئێزیدی) ديانة وليست بلد، هم مجموعة عرقية دينية تتمركز في العراق وسوريّة. يعيش أغلبهم قرب الموصل، ومنطقة

جبال سنجار في العراق، وتعيش مجموعات أصغر في تركيا، وسوريا، وألمانيا، وجورجيا وأرمينيا، ينتمون عرقياً إلى أصلٍ كرديٍ ذي جذور "هندوأوروبية"، يتكلمون لغة تسمى الكرمانجية، يرى "الإيزيديون" أن شعبهم ودينهم قد وُجدا منذ وجود آدم وحواء على الأرض، ويقال إن ديانتهم قد انبثقت عن الديانة البابلية القديمة في بلاد ما بين النهرين.

- أتعني أنهم ليسوا بمسلمين؟!

- يا أخي هناك من يقول إن الديانة الإيزيدية هي ديانة منشقة ومنحرفة عن الإسلام، ويرى آخرون أن الديانة هي خليط من عدة ديانات قديمة مثل الزرداشتية والمانوية أو امتداد للديانة الميثرائية. والديانة الزرادشتية هي "المجوسية" -ومؤسسها "زرادشت"- ديانة قديمة، تعتبر أقدم الديانات التوحيدية المعروفة في العالم،عمرها أكثر من ٣٠٠٠ سنة فيما يعرف اليوم بدولة إيران على تعاليم "زرادشت"يعتقد معتنقوها بوجود إله واحد أزلي هو"أهورا مزدا" بمعنى "الإله الحكيم"،وهو خالق الكون ويمثل الخير، ولا يأتي منه الشر أبدا ...وهذا كفر يا أخي لأنهم لا يعترفون بالله ولا

بوجـود الشـيطان ولا بالـديانات السـماوية ولا برسولنا محمد - ﷺ-

كنت أستمع لمثل هذه الحكايات من إياد عندما كان يتحدث عن أننا لسنا وحدنا كمسلمين نعرف الخير والتوحيد ؛ وأن هناك من اجتهد في معرفة الله الواحد وربما يكونون قد ساروا لكنهم لم يصلوا، لكنني لم أنشغل كثيرا بتفاصيل عن هؤلاء، أما الآن فلابد أن أعرف لماذا نحارب هؤلاء الناس إن كانوا موحدين.

اقتربت أكثر من "أبو عمر" وسألته باهتمام.

- وإلام تدعو ديانتهم هذه إن كانت من الإسلام أو من غيره؟

قال مازحا:

- أنـت تريـد أن تعـرف فـي جلسـة مـا درسـته أنـا أعواما هكذا بلا تعب .. عدل طرف عمامته، ثم جلس متربعا على كرسيه جلسة المعلم، فلتجلس هنا تحت قدمي ولتحضر لى علبة "ريد بول" (مشبرة) من الثلاجة.

ضـربت عمامتـه ضـربة أوقعتهـا واضـطررته للنـزول لالتقاطهـا وإعادتهـا إلـى موقعهـا فـوق رأسـه الأصلع .. وضحكت قائلا: علبة"ريد بول"؛ لماذا؟ هل لديك ليلة حمراء..؟!

امتقع وجهه وتلون بلون الدرك الأسفل من الجحيم، ثم صرخ في وجهي:

- أمازلت في ضلالك القديم وليالى المجون التى تعودت عليها في مهنة الغناء.

كظمت غيظى الذى بدا في عيني وقلت بصوت منخفض-أفزع صاحبى-:

- لا تذكر عملى السابق ولا تتهمنى مرة أخرى بالمجون؛ فلم أكن أبدا ماجنا .. أفهمت؟!

تركت الغرفة منطلقا إلى الجبل حيث أجد راحتى في بعض الخلوة التى لا يسمح بها جو المعسكر، وجلست أقلب ذاكرتي متلمسا بعض اللطف الذى خلت منه الحياة هنا.

******

لم أعد أتذكر كم من الليالى مرت علي وأنا لا أشعر بنبضات قلبي، منذ مر أول حب على هذا النبض وسحقه فخفت صوته، وجعل هذه المضغة التي بين أضلعي لا تشعر ولا أشعر بها، لم أستمع له ولم أشعر بدقاته على جدران أضلعي إلا عندما رأيت "إسراء"؛ تلك الفتاة التى تشبه في رقتها حبيبتى الأولى، لم تكن بها

من الملامح ما يشبهها ؛ فقد كانت الأولى سمراء تشبه فتيات النوبة التى انحدرت عائلتي من بيت شلالاتها الرقراقة، عشقت السمار ربما كان هناك أثر من حنين في روحى لأجدادي فكان عشقى بهذه السمراء ؛ حتى أصبحت مزحة بين أقراني الذين لا يعشقون إلا الفتيات البيضاوات ظنا منهم ان الجمال في هذا اللون دون غيره، كان إياد وهيثم يتمازحان حتى أنهم كانوا عندما يرونها يتصايحان .. دهب .. دهب، وكان هذا اسم عمتى التي تحمل البشرة السمراء، لم ننل أنا ولا إخوتى من بشرة أبي السمراء إلا القليل ما منحنا بشرة قمحية كبشرة أمي البحراوية التي تزوجها أبي.

لم أؤمن بمقولة إن الحبّ الأول هو الحبّ الأخير، أحببت أول مرّة عندما كنت في الرابعة عشرة، عندما كنت أعمل في ورشة إصلاح السيارات، في ذلك الحين شاهدت تلك الفتاة السمراء التي أسميناها (دهب) التي تمرّ من أمام المحل يومياً بعد خروجها من المدرسة المقابلة للورشة، وأعجبت بها، بل أحببتها حبا جما، لكنني لم أعبر لها عن حبي، بقيت صامتاً حرصاً مني عليها، ولم أكلمها، ليس خجلاً بل لأنني لم أرِد أن يتكلم عنها الناس، فقد كنت أخاف عليها خوف الأم على طفلها، فى الصباح أنتظر خروجها من منزلها وأتتبعها حتى تصل إلى المدرسة دون أن تشعر بي، وأسير وراءها عند خروجها من المدرسة حتى تصل إلى

منزلها، ثم أعود لعملي بعد أن أطمئن عليها، استمر هذا الحبّ أكثر من سنة أنهت البنت دراستها، وتزوجت ولم أعد أراها ونسيت هذا الحب العظيم برمته، ونسيت معه صوت نبضى.

أصبحت المرأة-بعد أن تزوجت- بالنسبة لي كما علمنى مشايخي مجرد وعاء حاضن للذرية، تقوم على رعاية بيتها، وراحة زوجها، أما عن دورها فى المجتمع كما يعبر النسويون، فهذا لم يكن بالشيء الضرورى إلا من ناحية رعاية الأسرة فقط، أما أن تكون المرأة فاعلة فى مجتمعها كما يدعون؛ فقد كنت أرى أن هذا شيء لا يليق بالمرأة، فهذه المخلوقة الضعيفة قليلة العقل كيف تناطح الرجل في الأعمال والوظائف؟! فقط يمكنها العمل في حماية الجماعة الإسلامية وتقوم بدور مجتمعي من خلال الأعمال الاجتماعية فى المسجد وما يلحق به من مشروعات، كحضانة أو مستوصف أو مركز للدروس الخصوصية مخفضة السعر، لا تختلط بهؤلاء المنفلتين، فهي في أمان وسط الإخوة الملتزمين، ولا مانع أن تعمل معلمة أو طبيبة للنساء حتى لا يتكشفن أمام الرجال ؛ لذلك تزوجت من امرأة لا تعمل؛ وكذلك جعلت كل نساء أسرتي-بعدما هديتهم- إلى الالتزام، منعت أيا منهن أن تعمل إلا في الجمعيات الشرعية.

جادلني إياد كثيرا فى تلك النظرة للمرأة وكان دائما ما يقول لى: "قد ورثت أنت وأصحابك هذه النظرة منذ أمد بعيد"، لم تكن أيضا حين أطل الرجل الأبيض من تحت قبعته التي تشبه قبعة الساحر أو (الحاوي) الملأى بالتدابير، لا لم تكن، بل منذ أن بدا في الأفق نور من الشرق، وانتشر يهدد ظلام الغرب، وكان لابد له لكي يحمي وجوده من تبديد هذا النور بتمزيقه، وشرذمته وتبديد أشعته، كنا نحيا في جنة وارفة، تمتد ظلالها شرقا وغربا، علما ورحمة، كنوزها تنام في باطنها، تشعل شهية الاحتلال، فصار من الضروري تفتيت وحدتنا لتسهيل اغتصاب أراضينا، ولأن الدين قوي، أصبح حتميا تقسيمه إلى جماعات متناحرة، تختلف على فكرة تقديم القدم اليمنى على اليسرى في الدخول، وترى من قصّر الثوب أتقى ممن ارتدى السترة، والتي ترتدي النقاب أطهر ممن تسير سافرة الوجه، والتي تقَر في بيتها أعبَد من تلك التي تسعى على رزقها ورزق أولادها، عندما رأوا المرأة عورة لابد من طمس هويتها، وكتم صوتها، ولم يقرأوا سيرة أجدادهم، ولم يأتهم خبر النساء اللواتي كن قاضيات حسبة فى عصر النبوة مثل «سمراء بنت نهَيك الأسديّة»وغيرها؛ حيث كان هناك من الصحابيات يحتسبن ؛ وأقرهن على ذلك النبى_ﷺ_، ولم تكن هناك ولاية مختصة بالحسبة؛

بل كانت الحسبة بشكل تطوعى؛ ومن ثم يصبح المعيار هو الكفاءة وفقط دون معايير تخضع للأهواء الشخصية.

فنّدتُ له كل ما قاله وأخبرته أن هذا كان في عهد الصحابة الأطهار والرسول الكريم بين ظهرانيهم، أما وقد عم الفساد فلا مناص من أن تقر النساء في بيوتهن كما أمر القرآن، صار بيننا جدال كبير وكان رأيه هو العكس أن المرأة دورها الآن أكبر نظرا لكثرة أعداد النساء وقلة العائلين لهن ولأن أكثرهن الآن من يعُلن الأُسر لمرض زوج أو لموته، وأنا كنت أرى أن الحل في إلزام الرجال بإعالة المرأة؛ وأن يكون ذلك بموجب القانون-كما يلزم الشرع الرجل -، وتطبيق الشريعة هو الحل الوحيد لذلك.

ولن يتم هذا إلا بالحكم الإسلامي كما تفعل المملكة العربية السعودية البلد الإسلامي الذى جعله تطبيق منهج شيخي "محمد بن عبد الوهاب" إسلاميا بمعني الكلمة.

***

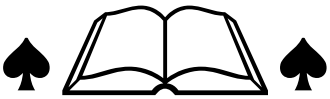

-٤-

رأيت إسراء -الفتاة ذات السبعة عشر عاما- الغضة ابنة الشيخ فتحي التي أنجبها بعد أن أنجب خمسة ذكور وطبعا أبى أن يرسلها إلى مدارس الدولة الكافرة التي لا تحكم بشرع الله ؛ كي لا تتعلم علومهم غير الشرعية، وآثر تعليمها العلوم الشرعية في البيت بعد أن أتمت دراسة الابتدائية وعهد بتعليمها إلى معلمات ثقات من بنات الجماعة، وعندما أراد أن تزداد تقدما في العلوم الشرعية لم يجد سواى أمينا عليها، التقيتها فعدت إلى ورشة السيارات وعاد نبضي يهتف بي أن ارو عطشي للعشق، عشقتها وعدت مراهقا، أنتظر لحظة الدرس، أخطف نظرات لجسدها الممشوق عندما تبختر أمامي رغم ثيابها السابغة فأنا أرى تفاصيلها وكأنها ترتدي زجاجا مصقولا، اشتهيتها كأني لم أشتهِ امرأة، وكأني ما تزوجت، لم أكن أحب التعدد رغم أني أفتى للإخوة بأن المستحب أن يتزوجوا مثنى وثلاث ورباع وأن التعدد هو الأصل، لكنني كان ما يشغلنى هو أمر المسلمين ورفعة الإسلام ولم أنشغل بالنساء، كانت علاقتى بزوجتى روتينية ليس فيها اشتهاء أو حب، وهكذا كل زوجاتى بعد أن اضطررت للزواج من أخريات لأثبت إيماني بالتعدد، كنت قد وأدتُ ذلك

الإحساس مع فتاتي دهب أو التى أسميتها "دهب"، علمتها أصول الفقه وكانت في هذه الفترة قد ظهرت أنواع من أسماء الزواج وأحببت أن أشرح لها وأقنعها بمشروعيتها في الإسلام (زواج المسيار والمتعة وكافة الأنواع والأسماء المستحدثة)، قلت لها ما كنت قد صرحت به من قبل للمجلات عندما سئلت عن هذه المسميات:

- إذا كان الزواج متوفر الشروط التي أقرتها الشريعة فهو زواج صحيح وليُسمهِ كل واحد كما يشاء، نحن لانهتم بالأسماء والعناوين ؛ والعبرة بالمسميات والمضامين؛ فهناك قاعدة فقهية تقول إن العبرة في العقود للمقاصد والمعاني وليس الألفاظ والمباني.

كانت إسراء فتاة ذكية كثيرة السؤال، لا تأخذ ما يقال بلا مناقشة فسألتني:

- إذاً ما الذى يجبر رجلاً قوياً على أن يخفى زواجه؟!

قلت بانكسار وأنا أنظر في عينيها بلوعة متمنيا أن تصلها رسالتى من وراء الكلمات:

- يعنى إذا تزوج الرجل زواجا ثانيا ولم يرد أن يخبر زوجته الأولى حتى لا يحدث بينهما خلاف خاصة إذا أحب فتاة صغيرة في عمر بناته ..

أطرقَت خجلى وقد توردت وجنتاها فاستدركت شارحا وكأن الأمر لا يخصني.

- فهذا كان يحدث قديما وهو ما يشبه الزواج العرفي، وهناك من تشترط أن يكون الزواج ليليا أو نهاريا نتيجة لظروف تعيشها، ربما امراة تملك المال ولكنها لم تتزوج وأحبت رجلا متزوجا وهو لا يريد إخبار زوجته وهذا ما سمي بالمسيار، أنا لا أعتني بالمسميات لو كان هذا الزواج مكتمل الشروط مثل المهر والقبول والإشهار والولي فهو زواج صحيح وليسموه ما يريدون.

ارتبكَتْ عندما سقط من أعلى الطاولة قلم فنزلتْ تلتقطه وأسرعتُ لأمنعها وألتقطه أنا فألتقت رأسها رأسي وسقط غطاء رأسها فانكشف شعرها الحريري مددت يدي لأضعه مرة أخرى على رأسها ؛ فلمست خصلاتها ؛ فما كان منى إلا أن ألقيت به وأمسكت برأسها وقبلتها.

*****.

-٥-

انتقل جدي الشيخ الصوفى فاضل صالحين إلى القاهرة بعد بناء السد العالى وعندما غمرت مياه بحيرة ناصر قريته، وتم التهجير للقرى النوبية عام ١٩٦٤، كان جدي يملك أكثر من خمسين فدانا كما ذكر لنا أبي وكان البيت ملئ بالخير، وكانت النخلة يسمونها في النوبة (رجل البيت) حيث كان الرجل إذا مات وفي بيته نخلة فمحصولها كافٍ أن ينفق على البيت، كان أبي وقتها في العاشرة، يتذكر أبي دائما حياته في النوبة ويحكيها ويكرر الحكايات، يحكي لنا كيف كانت علاقة أهله في النوبة بالنيل، وكيف غسلوا وجهه وهو مولود بماء النيل، وعندما أصبح عريسا اغتسل قبل زفافه بماء النيل التماسا للبركة، وطمي النيل كانوا يغطون به جسده عندما يكون محموما فيُشفى من الحمى، فهو يسحب الحرارة ويعود الجسم إلى طبيعته، عندما ولد جدى زرع له أبوه نخلات ومن تحتها أنواع الخضراوت والفواكه، وعندما أراد الزواج بنى له بيتا على مساحة مائة متر ملاصقا لبيته، حتى يكون هو وابوه وجده متجاورين، كان التهجير قدر أهل النوبة، في كل مرة كانوا يبتعدون عن النيل إلى الصحراء، كانوا يبنون قرى كاملة كل مرة من مرات التهجير، أما آخر مرة

وعدهم فيها جمال عبد الناصر بالعودة بعد ثبات منسوب النيل، ولكنه لم يحدث، كان يتذكر جيدا الأغاني النوبية وظلت جدتى وعمتى الكبرى تقومان بتحفيظه الأغاني حتى لا ينساها وهو بدوره قام بتحفيظها لهيثم فيعزف هو على الربابة والدف التى كان دائما يحتفظ بها حتى بعد أن تعلم العزف على الكمان، بين حين وآخر يعزف على الربابة ويغني أغاني النوبة والتهجير حتى أنه معظم حديثه مع أمي بالنوبية حتى تعلمتها وأصبحت هي الأخرى تتكلم معنا بها حتى لا ننساها، و أنا وهيثم وإياد نتكلم بها كشفرة بيننا عندما يكون بيننا أحد لا نريد أن يفهم ما نقول، كنا نسمى الزملاء بأسماء الحيوانات وننطقها بالنوبي حتى لا يعرفوا اسم من نتكلم عنه، كان أبي يظن أنه لابد يوما أن يعود إليها، وبعض الظن حلم بعيد المنال فقد مات أبي ولم يعد إليها.

كنت أنا وهيثم وأحمد، أصدقاء العمر كما يقولون، كانت دراستنا معا فى نفس المدرسة حتى الدراسة الثانوية، بعدها أكملت أنا وهيثم دراستنا الجامعية، وافترقنا عن أحمد الذى لم يكمل دراسته بسبب وفاة والده، وبالرغم من أنه كان لا يقل فى التفوق عنا إلا أنه آثر أن ينهى دراسته إلى هذا الحد لينفق على والدته وإخوته الثلاثة (حمدى،محمود،حامد) الذين

يصغرونه ؛ لأنه العائل الوحيد لهم، فعمل فترة نقاشا مع أحد الإخوة الذين نلتقى بهم فى المسجد، وهو الشيخ فتحي رشيد_كما كانوا يدعونه_، فهو ليس بشيخ ؛ لكن جرت العادة أن كل من أطال اللحية وحف الشارب وقصر الثوب والتزم تعاليم الدين الظاهرة فالناس تدعوه بالشيخ، ويأخذ منه الغضب مأخذه إذا ناداه أحد باسمه مجردا، الشيخ فتحي هو أحفظنا للقرآن، وكان يقوم بتحفيظنا نحن الثلاثة، ونال أحمد علومه الشرعية على يديه فهو قارئ جيد لكتب التفسير والأحاديث، وكان له أسلوب فى التفسير اختلفت معه كثيرا فيه؛ لأنه لم يأخذ علمه هذا من مصادره الشرعية، وهو الأزهر الشريف، ولم يتلقَ علمه عن عالم، إنما هو مجرد قارئ لا يرقى إلى مستوى العالم، ويجوز أن يفهم العلوم الفقهية بفهم يبعد عن مقاصد الشريعة؛ لكن ما صوره له ظنه وهواه.

كان يهاجمنى أحمد لو عارضت الشيخ يوما، أو إن قلت له إنه ليس بعالم كي يتجرأ على الفتوى فى المسجد، كما كان يفعل، ويتجمع حوله الشباب فيستفتونه فيفتيهم.

نشأ أحمد في بيتٍ بعيد عن التدين المتشدد يسوده جو الطرب، والغناء بحكم مهنة والده فوالده محمد فاضل صالحين عازف للعود والربابة يغني الأغاني النوبية بجانب أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب في الأفراح إلى

جانب وظيفته في مصنع ياسين للزجاج، وكان والده رحمه الله هو من يعلم هيثم العزف على العود، وكان يتبنى صوته حيث إن هيثم صاحب صوت شجي.

رغب أحمد في تعلم الموسيقى كوالده، وفي أن يكون فنّاناً ؛ لكن والده رفض ذلك معتبراً أن هذه المهنة لا تسمن ولا تغنى من جوع، وأنه يعلمها لهيثم لأنه من عائلة ثرية حيث إن والده رحمه الله كان ضابطا، لن يفكر يوما ما أن يأتى لعياله بالطعام عن طريق الغناء ؛ لكن أحمد لأن والده صاحب هذه المهنة فقير، فقد أحب أن يتعلم أحمد صنعة تأتي له بالمال الوفير، حيث كان يرى العمال وأصحاب الصنعة_مثل ميكانيكي السيارات_من ميسوري الحال، ولأنه كان قد كبر ولم يتعلم سوى الموسيقى وصناعة الزجاج، فأراد لابنه ان يسلك طريق المال، ويبتعد عن طريق الفن الذي لايجني منه ما يسد به رمق أولاده.

كان أحمد لا يرى في مهنة والده مشكلة، إلا أنه حينما أصبح من أنصار الجماعة الإسلامية قال لنا إنه سأل أحد مشايخ الجماعة:

- ماذا أفعل؟! والدي يعمل مغنّيا وماله حرام؟

فأجابه:

- إذا صودفت وإياك في مكان يمارس فيه عمله فلا ضير من ضربه.

فقلنا له:

- أوَ كنت فاعلا ذلك؟

فقال:

- والله كنت على استعداد لفعل ذلك؛ لكن الحمد الله لم أصادفه.

وبالرغم من حب أحمد للموسيقى والغناء_اللذين كان يمارسهما من باب الهواية والتسلية مع والده_ إلا أنه عندما اخبروه أنهما حرام لم يسمع أغاني ولا موسيقى بعدها قط؛ حتى هواياته فى لعب الكرة والبينج بونج والشطرنج الذي كان يهزمنا جميعنا فيهما_إن أقمنا مباريات فيهما_ اعتبرهما ملهاة، ولا يجب على شباب الدعوة الذى أخذ على عاتقه النهوض بالأمة أن يلعب ويلهو.

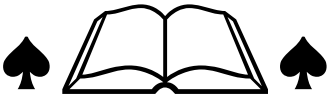

-٦-

لم يكن أحمد معجباً بأية شخصية سياسية_كمثل أعلى له_؛ حتى حين كان مراهقاً؛ فلاخطاب سياسياً أو اجتماعياً استطاع جذب ذاك المراهق الذكي المتمرد، أغلب الظن أنه كان يرى نفسه زعيماً منذ ذلك الوقت، أو كان يرغب في ذلك، والزعيم لا يُعجب بالزعماء.

وقف أحمد عندما كان طفلا ذا السنوات السبع يشاهد أحد نائبي الشعب يحدث والدته بكل فوقية وتعالٍ ؛ فعندما ذهبت له طالبة الوساطة لنقل أحمد إلى مدرسة قريبة من بيته بدلا عن التى ألحقته الإدارة التعلمية بها، وتبعد عن البيت مسافة تجبره على ركوب المواصلات للوصول إلي مدرسته، لأن هذا سيرهقهم ماديا لما يستوجب من إضافة ثمن المواصلات إلى مصروفه اليومي، ومنذ ذلك اليوم كره أحمد فكرة السلطة لوقوف أمه هذا الموقف المهين.

ولكن والدته كانت متشددة جدا، حتى إنها فى يوم ونحن صغار كنا نلعب مع الأطفال بالكرة فى المدرسة وقام أحد الصبية (بسب الدين) لأحمد، فما كان من أحمد إلا أنه أخذ برأس الولد وقام بخبطها فى الحائط مرات

عديدة حتى سالت الدماء من رأسه، وحين استدعى المدير والدته، لم تعترف بخطأ ابنها فى التصرف، بل شجعته على فعلته، متعللة بأنه بذلك يدافع عن الدين، وأن من يسب الدين يستحق أن يقتل لا أن يضرب، ولكنها تعهدت بأنه لن يفعل ذلك مرة أخرى بعد أن أوضح لها المدرسون أن هذا العمل إن تكرر منه سوف يفصل من المدرسة.

عمل أحمد منذ كان فتى في كثير من الأعمال حيث كان يقضى إجازته المدرسية فى العمل لمساعدة والده فى الصرف على إخوته، فكان يتنقل من عمل إلى آخر بلا ثبات، مرة فى ورشة لإصلاح السيارات، ومرة فى محل لتصليح الساعات، ومرة مع أحد النقاشين ومرة فى محل لعمل النظارات، وهكذا كان يعمل ويدرس.

انخرط أحمد بعد انفصاله عنا في صفوف الجماعة الإسلامية، وشارك في المظاهرات التى كانت تخرج تنديدا بالتطبيع مع اليهود خارجا هو وجماعته شاهرين المصحف، داعين إلى الحكم بما أنزل الله من أحكام فى كتابه العزيز، مكفرين أى حاكم لا يحكم بما أنزل الله، ثم عمل فى الدعوة والتبليغ فكان يذهب هو وأصدقاؤه إلى المقاهى، ويجلسون مع مرتاديها يتحدثون معهم فى الدين، ويطالبونهم بالذهاب إلى المسجد فى أوقات الصلاة وعدم ترك المساجد خاوية، لأن من

يسعى فى خراب المساجد إنما يكون مع القوم الكافرين، وكانوا يدخلون البيوت ويطلبون من الرجال النزول معهم للصلاة في أوقات الصلاة فى المساجد، ويخبرونهم أن الصلاة فى البيوت إنما هى فقط للنساء، ولا يصح للرجال الصلاة فيها ويذكرون لهم حديث رسول الله الذى رواه أحمد في مسنده " لولا ما في البيوت من النساء والذرية لأقمت صلاة العشاء، وأمرت فتياني يحرقون ما في البيوت بالنار" وعندما عارضته وأخبرته أنه حديث ضعيف، قال أن هناك حديثا صحيحا في البخارى ولكنه دون ذكر النساء والذرية، جادلته بأنه كيف لرسول الرحمة أن يذكر شيئا كهذا وأنه لا يمكن أن يفكر مجرد التفكير في حرق الناس؛ فلا يستمع إليَّ ويتهمنى بالتدليس، كان يترك عمله بالشهور ويخرج معهم فى سبيل الله ليهدى القوم الغافلين عن العبادة فى الكفور والنجوع، أو ربما هذا ما كان ظاهرا لمن يعرفونه، وأن الخفى هو الذهاب إلى معسكرات الجماعات الإسلامية للتدريب على أعمال القتال، حتى يكونوا على استعداد لخوض الحرب مع الدولة التى يعتبرونها كافرة فى أى وقت.

عندما أخذ دراسته الشرعية على يد الشيخ فتحي، وظهر مصطلح الداعية الإسلامى والذى لا يهتم أحد أن يكون من علماء الأزهر، ولا أن يرتدى عمامة الأزهر بل له سمت شيوخ الوهابية_من لبس الثوب القصير

وتحته سروال،ومن فوق الرأس الغطرة البيضاء، مع إعفاء اللحية وحف الشارب_ ، وكذا الحديث باللغة العربية الصحيحة المتقنة، وإدخال الآيات القرآنية فى أحاديثه العادية، ربما في غير مواضعها، ولكن كما يتراءى له أن وجود الآية فى هذا الموضع واجب، والاستشهاد بالأحاديث النبوية، مع ما يلزم من كلمات تنبئ بالتورع والخشية، واستبدال الكلمات الإسلامية بالألفاظ الجاهلية، مثل جزاكم الله خيرا بدلا من كلمة شكرا، والسلام عليكم بدلا من صباح الخير ومساء الخير، وبالله عليك، بديلا عن وحياة النبى_لأن من حلف بغير الله فقد اشرك_ومن هذا القبيل أخذ أحمد فى التغير.

ثم أصبح الداعية الإسلامى الذى يأتيه المريدون من مشارق المحافظات والقرى ومغاربها ليستمعوا إلى خطبه، ولينالوا من علمه الغزير، ويصلون وراءه فتخشع قلوبهم، ويبكون ويتباكون من طريقته فى تلاوة القرآن، وعندما يسأله سائل عن زيارة أولياء الله الصالحين من آل بيت رسول الله_ﷺ_ ، يخبرهم أن الرحال لا تشد إلا إلى ثلاثة مساجد ؛ وهي بيت الله الحرام والمسجد الأقصى ومسجد الرسول الكريم بالمدينة المنورة، وأن الصلاة فى المساجد التى بها قبور الصالحين لاتجوز، وهو لا يعي ما يقول، ولا يعرف ان المسجد الحرام مدفون بكعبته آلاف الأنبياء، وأن السيدة

هاجر مدفونة بداخل الكعبة، وإسماعيل عليه السلام مدفون بالحجر"حجر إسماعيل"_الذى هو جزء من الكعبة_معللا فتواه بحديث الرسول الكريم، عن لعن من يتخذون قبور أوليائهم مساجد، دون فهم للغة وأن القبر يعني مكان الدفن وليس ما يحيطه، ويقوم هو ومن على شاكلته من الدعاة فى الصلاة حتى تتفطر أقدامهم وأقدام من ائتم بهم ؛ فتنشرح صدورهم، ويشعرون بأنهم قد أقاموا صلاتهم على أكمل وجه غير عابئين بسنة الحبيب المصطفى الذى أوصى من صلى بالمؤمنين أن يخفف؛ فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة، وكان صلى الله عليه وسلم إذا صلى بالناس يصلى بسورة"الإخلاص"وسورة "الكافرون"كي لا يطيل عليهم، وكان إذا صلى منفردا أطال ما شاء الله له أن يطيل حتى تتفطر قدماه، فاستبدلوا سنته_ صلى الله عليه وسلم _؛ وبدلوا مواضع التخفيف لخلوتهم فى صلواتهم والإطالة عندما يصلون بالناس.

وكانوا يضربون أكباد الطرق إليه، ويتكبدون وعثاء السفر للوصول إليه، والاستماع الى خطبه المعادية لليهود والنصارى والشيعة، والعلمانية، وكل الفرق التى يعتبرها هو وجماعته فى النار، وأنهم هم وحدهم الفرقة الناجية.

وكان أحمد بذلك يعمل على استقطاب الشباب الذي يريد النصرة لدينه، ويثير حفيظتهم من جهة الدولة التى لا تعمل بشرع الله، والتى تترك النساء عرايا فى الشوارع _على حد قوله_، ولا تفرض الحجاب، وتترك الفتيات والشباب يدرسون فى الجامعات المختلطة، ويلتقون فى النوادى المختلطة، ويدعو لإقامة جامعات منفصلة لكلا الجنسين، غير واعٍ للهدف الذى خلق الله منه الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا.

ذات يوم ناقشته فى هذا الأمر بحديث من أحاديث السيرة النبوية فقلت:

- هل تعلم يا أحمد خبر الصحابي الذى أخبره رسول الله عما فعله هو وزوجته بضيفهما الذى اتاهما ولم يكن عندهما إلا قليل من الطعام، فقاما بتنويم الأطفال، وأمر الصحابي الجليل زوجته فأطفأت السراج وتظاهرا بالأكل مع الضيف دون أن يمدان يديهما للطعام، حتى انتهى الضيف من طعامه، ولم يأمرها بأن تجلس في مكان آخر غير الذي يجلس فيه الضيف.

فأخذ يتلعثم في الرد ويبرر بأن زوجها كان موجودا معها وهو محرم.

فقلت:

- أولا أنتم تحرمون هذه المجالس حتى فى وجود المحرم؟ فلا تفرقون بين الخلوة والاختلاط، الاختلاط أمر طبيعي الوجود ما دامت الحياة، وإلا جعلنا أسواقا للنساء وأسواقا للرجال، ومسارات، وطرق للرجال ومثلها للنساء، لماذا تصعبون الحياة على الناس، وتشقون عليهم بما لم يكلفهم به الله.

ذاع صيت أحمد بعد دعوته للاعتصام ضد الكنيسة، عندما اختفت إحدى السيدات_على حد زعمه هو وجماعته_ ، بعدما أسلمت تلك السيدة، وادعوا ان الكنيسة قتلتها بسبب إسلامها، ودفاعه عن الفتيات المسيحيات اللاتى كن يهربن من بيوتهن ويتزوجن شبابا مسلمين، وقعن فى حبهم وادعى أهلوهن أنهن اختطفن، فعُرف أحمد بكونه داعية إسلاميا ومصلحا اجتماعي ثائراعلى الظلم.

بعدها أخذت تتوالى عليه الدعوات من أمراء المملكة السعودية للزيارة والحج والعمرة، وتنهال عليه الهدايا والعطايا منهم، وإرسال الزكاة والصدقات له من قبلهم لتوزيعها على الفقراء، وبدأ يظهر عليه الثراء فبنى مجمعا للأيتام يجمع فيه الأطفال المشردين فيعلمهم فيه العلوم الشرعية وعلوم القرآن، وكان الأولاد لا يقولون له إلا بابا أحمد، وفتح سلسلة محلات للبقالة والسوبر

ماركت كان يوظف فيها هؤلاء الأيتام. كره المدن وضجيجها؛ فصار يميل للعيش في الأماكن التى تفيض بالهدوء فأصبح من سكان المجمعات السكنية(الكومباوند) التى أخذت شركات المقاولات فى استحداثها، للاعتزال بأصحاب الأموال الأثرياء بعيدا عن صخب المدن وخطرها على أموالهم من اللصوص ففيها الأمان.

تزوج مرّة أولى عندما كان في العشرين من عمره، وأنجب من زوجته الأولى محمد وعبد الرحمن وعمر، ثم بعد أن اصبح الداعية الإسلامى الكبير ؛ نادى بالتعدد وأثبت بتفسير القرآن أن التعدد هو الأصل، ولأنه قدوة يجب أن يقتدي به الشباب، تزوج للمرّة الثانية والثالثة والرابعة وأنجب من زيجاته التالية بنات، لم يذهب بهن إلى المدارس الجاهلية_كما كان يطلق عليها_لأن هذه المدارس تعلم العلوم الدنيوية، وأن العلوم التى يجب أن تدرس للمرأة هى فقط العلوم الشرعية، فكان يحضر المعلمات من بنات الجماعة، إلى بناته فى البيت تعلمهن العلوم الشرعية، والفقهية وتحفظهن القرآن، لينشئن على الإسلام وليكن أمهات مسلمات في المستقبل يعلمن أبناءهن علوم الدين، ولا شأن لهن بعلوم الدنيا. ولست أدرى من أين له بهذه الادعاءات، وكيف وقد كان علماء الدين من التابعين من

برع فى علوم الرياضيات والطب والصيدلة فكان بارعا فى علوم الدنيا جنبا إلى جنب مع علوم الدين.

كم قلت لـه أن مـا يتم تداولـه علـى أنـه الـدين الإسـلامى وعلى انه صحوة إسلامية، ما كان إلا ترويجا لدين آخر لا يمت للإسلام بصلة، وإنما كتب بأهواء وأغراض ومآرب من أولها ظلم المرأة باسم الدين، ما أدى لظلمهما معاً، وأنت يا أحمد أحد كهان هذا الدين الغريب.

****

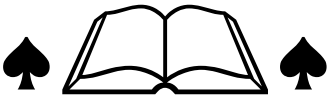

-٧-

في أحد شوارع مساكن الضباط يسكن هيثم ابن الضابط حسين شكرى، رغم أنه لا يفصل بيننا إلا شارع أبو الخير إلا أننا كنا نعتبره يسكن بأرقى أحياء القاهرة بينما نسكن نحن بأحد عشوائياتها، كان والده_رحمه الله_ضابطا بالقوات المسلحة بدأت موهبة هيثم فى الظهور منذ كنا فى المدرسة الابتدائية، فكان يشارك فى حفلات المدرسة، وكان هيثم طفلا وسيما رقيق المشاعر حنونا، تبناه عمى محمد فاضل والد أحمد_أو الشيخ أحمد فاضل فيما بعد_وتعهده بالاهتمام، وعلمه العزف على كثير من آلات العزف التى كان بارعا فى العزف عليها، في عُمرِ الخمس عشرة سنة، في مرحلة التعليم الإعدادى بدأ هيثم يشارك فى حفلات صغيرة وفي الأعراس الشعبية مع عمى فاضل، وبدون علم أهله، فقد كان يخبرهم أنه سيبيت الليل عندى لنذاكر معا، ويذهب معه ليؤدّى العديد من الأغاني الأصيلة مثل أغاني أُمِّ كلثوم، عبد الحليم حافظ، فريد الاطرش، محمد عبد الوهاب والعديد من المغنين المشهورينِ الآخرينِ والأغاني النوبية التى علمها له عم فاضل، واستمر هيثم في محاولة الوصول إلى الشهرة حتى أواخر التسعينات

حيث قام بوضع ألحان أغانيه بنفسه، وفي تلك الأثناء تعرف هيثم على إحدى شركات الإنتاج التي تعاقدت معه لمدة عشر سنوات وساعده الموسيقار الكبير فتحى صالح في ألبومه وانطلاقته الفنية، ويعترف هيثم له دوماً بفضله عليه، وكانت الأغنيات التى لحنها بنفسه هى التي ساهمت في بداية سطوع نجمه في عالم الغناء واستمر هيثم بتقديم الأغنيات والألبومات بالتعاون مع الشركة نفسها التى تبنت موهبته، وتوالت عليه العروض من شركات الانتاج الفنى، وقام بعمل ألبوم مع شركات أخرى، كان ذلك مساعدا له على الانتشار بسرعة فى وقت قياسى يحسده عليه ابناء جيله من المطربين، فضلا عن الحفلات والعقود التى توالت عليه من الفنادق الكبرى للمشاركة فى برنامجها اليومي للسهرات، وكانت أغانى هيثم تحتل المرتبة الأولى في كل المحطات في الإسبوعِ الأول من ظهور الألبوم لأول مرة، كانت أغنياته تلقىَ شعبية كبيرة جداً أيضاً في محطات الإذاعة في كافة أنحاء الوطن العربي، وبسبب النجاحِ الساحقِ والمبيعات الضخمة من الألبومِ، فقرر هيثم إنتاج الأغنية المصورة، حيث بدأ هذا الشكل من الأغاني في الانتشار، وكان له على شاشة التليفزيون حضور طاغ حتى أن كثيرا من المخرجين حاولوا الاتفاق معه على المشاركة فى أفلام غنائية ليعيد بصوته الساحر وحضوره أمجاد الأفلام الغنائية التى افتقدها

عالم التمثيل منذ وقت طويل، وكنت قد حاولت دعم موقفهم وتأكيدي له بأنه يمتلك وجها ساحرا جاذبا الكاميرا بصفتى مخرجا، وبصفتى صديقا كنت أنصحه لدعم فنه بالتمثيل، ولكن هيثم كان شديد الخجل ؛ فما كان رده إلا الرفض دائما، وكنت دائما أمازحه،وأقول له إن دخوله التمثيل سيكون على يدي ؛فمهما حاول الهروب منهم فلن يستطيع الهرب منى أنا، أصبح هيثم واحداً من النجوم البارزين الكبارِ في الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه.

بدأ هيثم بعد ذلك فى أغانى القصائد الطويلة التى كانت قد غابت عن الساحة الفنية بعد أم كلثوم، وفايزة أحمد، ومحمد عبد الوهاب، والتى قدمها بموسيقى رفيعة المستوى فغزى بها عالم الغناء فى الوطن العربي، وفي ثلاث سنوات أصبح واحداً من عمالقة الموسيقى والغناء فى الوطن العربي، ولقب من قِبل عشاقه بملك الرومانسية الراقية، حتى ان أحد محبيه أهداه كلمات أغنية خاصة عنه تحمل اسم "هيثم الغناء" ولأول مرة قام هيثم بتلحينها وغنائها على مرأى ومسمع من الجمهور فى أحد البرامج التليفزيونية.

ثم اشترك أيضاً في المهرجانات العربية الرئيسة في العديد من البلدانِ العربية مثل مصر، لبنان، الكويت، الإمارات العربية المتحدة، فلسطين وبلدان أخرى حول

العالم، واشترك مع المغنين العربِ المشهورينِ الآخرينِ، في مهرجان كبير في فلسطين تكريماً للانتفاضة.

هيثم اسطورة فى عالم التلحين والغناء ويعد رابع أربعة من عظماء التلحين فى الوطن العربي هم محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش، ومحمد فوزى، كانت أغانيه يرددها جميع الوطن العربي ممن يحبونه، ومن لا يحبونه فهو قد أبدع إلى أقصى حد، وحقق نجاحات كبيرة فيها، ومن خلال الحفلات بعدها ظهر نجم هيثم جيدا، وبدأ فى احتلال الساحة الفنية كمطرب وملحن، وبدا فى تلحين أغنيات لكثير من زملائه المطربين، وتلحين المقدمات الموسيقية للمسلسلات والأفلام في مصر والعالم العربي.

فكان ذا أسلوب فريد فى التلحين والغناء وأصبح ذا تأثير على الجماهير، حيث كان المطرب صاحب أكبر قاعدة جماهيرية في كافة أنحاء الوطن العربي. أعاد هيثم مجد الثنائيات الغنائية، وقد غنى مع أشهر المطربات وأكثرهن شعبية فى الوطن العربي. ثنائيات كانت تقترب في شعبيتها من ثنائيات شادية وعبد الحليم حافظ، حيث انتشرت في ظرف أيام من تصويرها في كافة أنحاء الوطن العربي لما تحمله من رومنسية عالية، وطرب أصيل ولحن غاية فى الإبداع.

عندما كان هيثم يغني في إحدى حفلاته وقعت عيناه على إحدى الفتيات وأعجب بها، وبعد ذلك شاهدها عدة مرات وتأكد من أنها تتابع حفلاته، وتحرص على حضورها، كانت علياء ابنة خالة هيثم و الـ" best friend" تصاحب هيثم فى كل حفلاتة، و قد لا حظت وجود نُهير فى كل حفلات هيثم، ولاحظت أيضا من نظراتها له انها تكن لها شعورا ما لا ينم عن إحساس طيب من ناحيتها، فدار بينها وبين هيثم حديث عن تلك الفتاة التى تتابعه غير بعيد، ولا تقدم على الاقتراب منه وتنظر إلى علياء نظرة الأعداء.

قررت علياء لفت نظر هيثم لتلك الفتاة المعجبة فقالت له ذات مساء في سهرة رأتها تتابعهم من بعيد:

- هيثم ألا تلاحظ تلك الفتاة التى تكاد تكون قاسما مشتركا فى كل حفلاتك؟!

حاول هيثم التغابي ليؤكد لنفسه ما أحس به عن طريق علياء ليتأكد انه ليس واهما فى أن تلك الجميلة تأتى الحفلات من أجله وليس لسبب آخر، أو مجرد مصادفة.

- عن أية فتاة تتحدثين.

وكأنها شقت عن صدره فعلمت ما يحاول إخفاءه عنها.

- الفتاة تلك التى هناك التى لم تنزل عينيك عنها طيلة الحفلة.

ضحك هيثم ضحكة تنبئ عما يدور بداخل رأسه من رغبته فى قتل تلك المرأة التى مهما حاول التستر، فإنه يقف أمامها عارِي الأفكار مكشوف عورة القلب، ولا يستطيع إخفاء شيء عنها أبدا.

- ومن قال لك يا ذكية إنها لا تأتى الحفلات لأنها مجرد معجبة، أتعرفين خفايا صدرها كما تكشفيني أيتها الماكرة؟

غمزت بعينها اليمنى، وغارت غمازتا وجنتيها هى الأخرى فغمزت لتشى له أنها هى الأخرى خبيرة بقلوب العاشقين وإن أخفوا وكتموا سر هواهم فهذا لا يخفى أبدا عن علياء مكتشفة الأحبة، التى تعرف المحبين بسيماهم، ومن يعرفهم أكثر من قلب أحب فاكتوى بالحب، ولم ينل منه مأربا فعاش يقتات على نظرات الحب بين العاشقين يشبع بها جوع شراييه وعطش الوتين.

- أتشك فى ذكائى العاطفي، وفى مقدرتى على تشام رائحة القلوب المشوية بالحب عن بعد يا صديقى؟!

ابتسم هيثم وطأطأ رأسه مذعنا لعلمها ومؤكدا بابتسامته أنه أبدا ليس عنده شك فى هذا.

فى ذات ليلة بعد أن أتم هيثم عمله، تأبطت علياء ذراعة وهما فى طريقهما للسيارة، وكانت نُهير تقف غير بعيد منهما تريد أن تطلب من هيثم أخذ صورة معه ولكنها وجدت علياء بهذا الوضع معه، مما أقصى فكرة التصوير بل والحديث معه من الأساس عن رأس نُهير الذى أخذ فى الفوران، وأخذت الأفكار تعيث فيه اشتعالا، وبخبث الأنثى العارفة بكيفية إظهار نار الغيرة التى تتخفى تحت رماد التصنع باللا مبالاة اقتربت علياء من هيثم أكثر وأخذت تسر له فى أذنه حديثا يضحكه، وأخذت ضحكاتهما تتعالى حتى تصل إلى أذنى نهير، وهى تجرر أذيال الهزيمة خلفها كأنها فارس خسر معركته دون أن يخوضها.

وقف هيثم ينظر لفتاته الهاربة من معركتها تناديها عيناه، تطالبها بالرجوع واقتناصه من بين براثن علياء، وبعدم الاستسلام إن كانت فعلا تحبه، ويختلط مع تلك النظرة صوت خبيث من رأسه حاول طرده بحركة عصبية من يده، أنها لا تحبه وإلا ما كانت استسلمت هكذا لتلك الغبية المتذاكية التى أضاعت فرصته فى اقتراب فتاة أحلامه منه للأبد، وتلاطمت أمواج الأفكار فى رأسه، وطالبه قلبه أن يعدو خلفها، ويجذبها من ذراعها ويوبخها على الفرار الذي آثرته عن خوض معركة ما كانت ستأخذ من وقتها إلا ثواني، تقترب منه

بخطوتها وكان هو سيستسلم فورا ملقيا بتلك الغبية علياء تحت عجلات أول سيارة تمر من أمامهما ليؤكد لها انها ليست بحبيبته.

أمسك بذراع علياء يسوقها أمامه، وأخذ يكيل لها السباب ولعن ذكاءها الذي ليس له وجود حيث تسبب فى إبعاد تلك الرقيقة عنه ربما للأبد.

ضحكت علياء من فعله وقالت والدموع تختلط بصوت ضحكتها.

- لا تخف .. إن كانت تحبك فعلا فلن تستطيع الابتعاد، وإن كنت مجرد مطرب معجبة به فلن تعود إذا أبدا، وفى كلا الحالين أنت لست بخاسر، يا صديقى ما فعلته أنا هو ما سيكشف حقيقة ما تكنه لك، والذى أعرفه علم اليقين من أنه حب.

ربتت على كتفه تحاول طمأنة فؤاده وقالت:

- لا تخف ستعود.

استقلا معا السيارة التي كانت تسير فى طريق واحد، وكل منهما شارد في عالم منفصل عن الآخر.

شرد هيثم فى تلك الحبيبة التى لم تخطُ نحوه خطوة تحمله على الركض إليها، ولو حافيا على الجمر، وشردت علياء فى مقارنة بين جنين الحب بين هيثم،

وتلك الغريبة وحبها الأول الذي شاخ من قبل أن يبلغ عامه الأول، زوجها آسر الذي بلغت فى حبه حد العشق، ولم تكن هى بالنسبة له إلا مجرد زوجة، تهتم بشؤونه وشؤون بيته، وتهئ له سبل النجاح فى عمله، ولم يهتم حتى بعدم انجابها منه حتى الآن بالرغم من مرور خمسة أعوام على هذا الزواج، وحينما يدور بينهما حديث عن هذا الأمر، فإنه يزيد من ملاطفتها محاولا إقصاء فكرة الإنجاب عن مخيلتها، وكان هذا مثيرًا لدهشتها وفزعا فى آن واحد، ومثيرا أيضا تساؤلات لم تجد عليها إجابة، كانت حجته الدائمة التى يعول عليها هى مستقبله الذي يبنيه، وأن هذا الأمر فى الوقت الحالى ليس له وجود فى خططه المستقبلية.

كان قلب علياء دائما هو سبب معاناتها، سواء مع زوجها أو أي علاقة إجتماعية كانت، صداقة، أخوة، و هكذا ..

كانت مقولة "ديستوفيسكي": "انا أحمق بقلب ولكن دون عقل، وأنتم حمقى بعقل ولكن دون قلب، وجميعنا تعساء وجميعنا نعاني"_هى ما يمثل هذه العلياء ..

الوحيد الذى كان يتفهم قيمة هذا القلب هو هيثم، هو من كان يستوعبها حين يفيض كيل تحملها بالحزن.

خرج هيثم من شروده، ونظر ليجد قطرات من الدموع تساقطت على وجنتى علياء ..

- ماذا بك يا صغيرتى؟ ولم هذه القطرات اللؤلؤية التى تهدرينها.

انتبهت علياء أن هيثم لاحظ دموعها، وهي ما كانت أبدا تخفيها عنه ولا تحاول.

- سبحان الله لولا هذه الدموع لما احتملنا الحياة بما فيها من مرار وعلقم.
- أنت من تشربين العلقم فى نهم، ليس هناك ما يجبرك على ذلك ولكنك تصرين عليه، ولست أدرى كيف تستطيعين تحمل كل هذا الإهمال من ذلك الرجل.
- هكذا هي الحياة يا صديقي، تقلبنا ذات اليمين وذات الشمال كيف تشاء، وليس علينا سوي الرضا بأقدارنا، وما علينا بعد الرضا إلا احتمال اختبارات الحياة في صبر وإيمان، أيا كان الاختبار، والابتلاء الذى نتعرض له، فكثيرون منا من تستوقفهم هذه المفارقة الغريبة من مفارقات الحياة، أن يعطوا بسخاء فلا ينالون إلا القليل، أو أن يخلصوا لمن يفاجئهم بالغدر وخيانة العهد، أو أن يصدموا بالجحود والنكران، فلا يبين لتضحياتها أو سخائها فى غيرها أثر، حيث كانوا يتوقعون أن يقلدهم الآخرون قلائد الوفاء والعرفان ..

جزاء ما طوقوهم بأطواق الحب و الإخلاص، وإذا بهم يقلدونهم بطوق الإهمال نظير الاهتمام الذى كانوا يبذلونه، واللامبالاة مقابل اللهفة، إنها مفارقة مؤلمة بالفعل .. وقد تبدو للبعض مثيرة للاحباط، ومحرضة للإنسان علي التوقف عن العطاء للآخرين مادام لا يلقي منهم في النهاية إلا جزاء سنمار.

تنهدت وكأنها تحاول الرجوع لحالة الرضا النفسي التى تعيشها واستطردت:

- لكن تأمل الحقيقة مليا يقنعنا علي الناحية الأخري بغير ذلك، ذلك أن المرء لايقدم عطاء ولا خيرا لأحد إلا وينال في الآجلة أو في العاجلة جزاءه العادل عنه، وكل ما في الأمر أن البعض يرون رأي العين ثمرة عطائهم في المدي القريب، والبعض الآخر يترقبها ويتوقع أن تجيئه في خير مؤجل إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة التي كانوا بها يوعدون. أما المحب الصادق فلا ينتظر من المحبوب نظير حبه جزاءً ولا شكورًا، فقط يحبه وفقط يخلص وفقط يتألم فى صمت إن هو لم يلقَ حبا، و اهتماما نتاج حبه الذي زرعه فى قلب المحبوب.

ضحك هيثم ملء شدقيه وقال ممازحًا:

- ومن هو"سنمار"ياسنمورة؟

قالت علياء: سأقول لك لعلك تتعلم شيئا

يقال: إن «سِنِمَّار» هذا رجل رومي بنى قصر«الخورنق» الذي بظهر الكوفة للنعمان بن امرئ القيس، فلما فرغ منه ألقاه النعمان من أعلاه، فخر ميتاً، وإنما فعل ذلك لئلا يبني مثله لغيره.

فضربت العرب به المثل لمن يجزي بالإحسان الإساءة و قال الشاعر في هذا:

جزتنا بنو سعد بحسن فعالنا

جزاء سِنِمَّارٍ وما كان ذا ذنب

- وما يجبرك يا جهبذة الأمثال على أن تنتظرين حتى تنالى جزاء سنمار هذا؟ لماذا لا ترفضين هذا الإهمال وتطلبين الطلاق؟

ضحكت بتهكم.

- أنا أرى أن الله خلق لكل إنسان زوج يلائمه وشريك لحياته، ويظل ذلك الشريك مخفيا في علم الغيب لا يلتقيان إلا بأجل مسمى عند الله وحده .. وحين يأذن الله سبحانه وتعالي له بذلك فيضع الشريك فى طريق شريكه، العشرة بين الأزواج لا تكون بكمال الأجسام ولا بصحة الأعضاء الجسدية، ولا بجمال الخلقة ولا بما يتبادلونه من عطاء، وإنما يتعاشرون بحسن

المعاملة، فالعلاقة الزوجية كمثل خيمة يستظل بها الزوجان، بها من الأوتاد التى تقوم عليها من رقة المشاعر وحسن الخلق، والدين وروح العدل فى العطاء والأخذ فى العلاقات الزوجية، لو كنت أوسم الرجال وأصحهم لكنك تفتقد كل ذلك لما طالت عشرتك لزوجة أو صديق حتي وإن حاولت المستحيل ، في حين أن رحلة الحياة لابد أن تمضي هادئة وسعيدة إذا توافرت لها ظروف ائتلاف الأرواح، والاحترام والفهم والعطف المتبادل، واتحاد الرغبة في السعادة والاستقرار، أما وإن افتقرت الحياة الزوجية لأحد هذه العناصر فإنها لابد أن تنهار، ولا يحميها من هذا الانهيار إلا وتد واحد يقوم بعمل كل هذه الأوتاد . ألا وهو الحب، الذى يجعلك تتحمل كل شيء فى سبيل أن تظل هذه الخيمة قائمة لتحتمى بظلها، وأنا لا أجد في زواجك هذا شيئا مما ذكرت.

انهى هيثم كلماته وكانت علياء قد وصلت لباب قصرها المظلم، ألقت على هيثم السلام، وذهبت لتفتح بابه، لتغوص فى فِراشها، وتلف جسدها بغطاء كثيف لعله يمنحها بعض الدفء محاولة التغلب على الصقيع الذي تنشره جدران حجرتها فى أوصالها.

كان أول لقاء لعلياء مع آسر فى الجامعة، على باب حجرة خدمة الشباب حيث كان رئيسا لاتحاد الطلاب ومسؤولا عن الرحلات وأسرة الجوالة، كانت هي وتارا تسيران فقرأت علياء المنشور الملصق على باب حجرة خدمة الشباب عن رحلة إلى الأقصر وأسوان لمدة أسبوع، وكانت علياء مولعة بالرحلات، أمسكت تارا بيدها تجذبها بعيدا عن المنشور محاولة إقصاءها عن نية السفر وتركها وحيدة، فتارا كان محظورا عليها الرحلات او الخروج بعيدا عن ذهابها للجامعة وحضور المحاضرات، وأخذت تارا تجذبها وهى تقاوم في أثناء خروج آسر من الحجرة فاصطدم بها وهَم بأن ينهرها هى وصديقتها على ما تفعلان، والتقت عيناه بعينيها وكأن هذا الشيطان المسمى"كيوبيد"كان له موعد معهما هنا، فتغيرت قسمات وجهه المتشنجة الغاضبة، فابتسم لها وبادرها بالسؤال وتعريف نفسه لها:

- أنا آسر مسؤول أسرة الجوالة .. هل أستطيع أن أقدم لك أى خدمة.

وكأنها عاشت سنينها فى ظلام لم ترَ عينيها النور وأبصرت فجأة على نور الشمس يشرق من عسل عينيه هذا الآسر لينير جنبات عمرها المعتمة ..

أو كمن مسه السحر أمام بلورة ساحر فوقف مشدوها وكأنه نسي من الكلمات حروفها.

وقفت برهة تحاول الكلام فلا تجد من الحروف ما يسعفها ..

راحت تارا تنظر إليه وتنظر إليها متعجبة من هذا المشهد الذى ما كانت تظن أبدا أن ترى عليه علياء تلك المدللة التى كانت دوما تلوم تارا على رومانسيتها عندما تحدثها عن فارس أحلامها، وتصف كل من تحب بالغبية التى تسلم قيادها طوعا لقيود الحب فتحرم نفسها بهجة الحياة وزينتها مع رجل يحبسها فى بيت بين أربعة جدران ..

طالت نظراتهما، وكان هو أول من استفاق من تلك السكرة الثنائية التى أصابتهما معا دونما كأس ولا صهباء إلا من نظرة كانت بمثابة شلال من خمر غمر روحيهما ...

فبادرها بالحديث ..

- ألن تعطرى أذني باسمك، وتمنحينى شرف إسداء أية خدمة لك ..؟

كأن غيثا من حلو حديثه أصاب جفاف لسانها فانهمرت الكلمات كشلال من بين شفتيها ..

مد يده مُصافحا .. فأسلمت له قلبها مع كفها وقالت:

- علياء الغريب في السنة الأولى، وأنا كنت أقرأ المنشور الخاص بالرحلة وبما أنك قد أخبرتنى أنك المسؤول عن فرقة الجوالة التى تنظم الرحلة فأنا أريد أن أشترك فيها.

تكلم بأسلوب الواثق ..

- اه هكذا عرفت سبب عدم معرفتك بي ..
  لأنك فى السنة الأولى .. فأنا كل الكلية تعرفنى

- نعم لابد أن يعرفك الجميع ..

استفاقت بعد أن وكزتها تارا منبهة اياها ..

- أقصد أنه لابد أن تكون معروفا طالما أنت مسؤول الرحلات.
- ولكن أخبرينى هل أنت ابنة المهندس فتحى الغريب صاحب مجموعة شركات الغريب الاستثمارية؟
- نعم .. هو والدي.

لمعت الدهشة في عينيه واشتعل النبض فرحا بأن تلك الفاتنة ابنة الثرى المعروف وكأنه أصاب بهذه المعرفة الحسنيين، فهذه الفتاة التى رأى في عينيها هياما به من أول نظرة ستكون درجا يصعد عليه إلى أبيها وأمواله.

سار معها وسارت معه كالمخدرة ونسيت تارا أو أن شخصا ثالثا كان حاضرا فى هذا اللقاء ..

وقفت تارا تنظر إليهما وهما يسيران معا والدهشة تملؤها وأخذت تنادى على علياء فلا تجيب وكأنها أصابها صمم فلم تسمع لتارا نداء.

سارت تارا وهى تتمتم بالسباب لعلياء، فأشار إليها هيثم محاولا تنبيهها له؛ فقد وقف أمامها ولم تره وأخذت تسير فى طريقها وهى تتمتم.

لحق بها هيثم وجذبها من كتفها ..

- ما بك ..
- اه هيثم أهلا ..
- أهلا !.. أنا أناديك وأشير إليك وانت لست هنا فى عالم آخر ماذا أصابك؟
- تلك البلهاء التى تُدعى علياء كنا معا وعندما وصل ذلك الثعبان الأرقم تركتنى وسارت معه وكأني ليس لى وجود.
- ثعبان ماذا؟ أي ثعبان؟ ما هذا الهذيان؟
- شاب تعرفنا عليه للتو وعندما عرف أنها ابنة فتحى الغريب أطلت الفرحة من عينيه وأخذها منى وسارا معا وهى سارت معه ولم تنتبه أصلا لوجودي ..
- من هذا الشاب؟

- هو مسؤول الرحلات .. ..

لم تكمل تارا حديثها فقاطعها هيثم.

- تقصدين آسر؟
- نعم هو آسر.
- تلك الغبية .. آسر هذا انسان انتهازى ووصولى فأنا أعرفه جيدا.
- وأنا عرفت ذلك من نظرته، بمجرد أن ذكرت اسم والدها ولكنها راحت فى عالم آخر وكأنه سحرها فانفصلت عني وعن العالم.

كنت أقف غير بعيد أسمع وأستمتع بحديثها البرئ العذب مع هيثم وأراها شفافة كجدول انساب ماءه حلوا سلسبيلا، كحورية هربت من الجنان، و تنازلت من عليائها لتقف هنا قاب قوسين منى، وخلت نفسى لو مددت يدي لأمسها لوقعت على الأرض من نورها صعقا .. وسألت نفسى كيف لكائن نوراني مثلها يسكن هذه الأرض كباقي البشر؟

أصدرت صوتا من حنجرتي لينتبه هيثم أننى لازلت أقف فى انتظاره ..

- إحم. إحم.

تنبه هيثم لوجودى والتفتت تارا إلى مصدر الصوت الذي هو أنا فتوردت وجنتاها، و أطل الكرز من فوق

شفتيها شهيا ليخبرنى أنها جنة بذاتها وليست فقط حورية..

قام هيثم بتعريف كلانا بالآخر:

- إياد صديقى يدرس الإخراج فى معهد السينما، وهو فى السنه النهائية، ولكنه معتاد الوجود معى فى الأوقات التى لايكون عنده محاضرات او عمل فى كليته.
- اهلا إياد، تشرفت بك.

أكمل هيثم التعارف:

الآنسة ...

أكملت أنا الاسم متسائلا.

- تارا اسم جميل ولكن ما معناه ..

ابتسمت تلك التارا الجميلة وارسلت عينيها إلى وردة كانت ترقد تحت قدمها خارجة من سور الحديقة التى نقف بجوارها وكأنها تستحلفها أن تقطفها وتقربها من وجنتها لترشف من لهيبه فتزداد جمالا ..

وقفت تسرد لى معانى اسمها فأدركت أن ظنى كان فى محله..وأنها لابد أن تكون زهرة من زهور الجنة، أو نجمة من علياء سمائها أتت إلى الأرض لتشع البهجة والضياء كحورية.

***

لم تدرك علياء أن المصلحة الشخصية كانت هي المحرك لنشاطاته، وسلوكياته الخاصة والعامة، هكذا دوما كان آسر يرى الطريق الذي فيه مصلحته، ويسيره بكل دأب حتى يصل إلى ما يريد، كان ناجحا فى هذا الأمر وواضحا لكل من ينظر مليا لتصرفاته أو ربما لمن يراه لمجرد لقاء واحد، فهو لم يكن ممن يدارى انتهازيته، أو ممن يخجل من إظارها أو يستر عورتها أمام كل من يلتقيه، بل أحيانا كان يباهى بأنه يصل إلى ما يريد بأية وسيلة وكان الأمير (رواية مكيافيلى) هو مثله الأعلى فى الوصولية، فالغاية عنده تبرر الوسيلة، وكانت دائما غاياته كما يراها شريفة طالما هي غايته وإرادته هو، لذلك فأية وسيلة إلى غايته يعتبرها أمرا مشروعا بل واجبا تحتمه المصلحة.

لم يكن للمبادئ وألاخلاق والقيم العليا أي اعتبار عنده طالما كان الأمر يتعلق بشىء يريده، فكانت سلوكياته ما هى إلا أنعكاس لما في داخله من حب الذات وألانانية والتعالي والخيانة والغدر.

لم تكن علياء لتسمع مني أو من أحد من زملائها الذين كانوا يعرفون آسر حق المعرفة، ويعرفون كيفية وصوله لمقاعد اتحاد الطلاب، وكيف كانت مواقفه والأفكار التى كان يدعي أنه يتبناها قبل الانضمام إلى اتحاد الطلاب، وكيف تخلى عن كل هذه الأفكار بمجرد

وصوله إلى بغيته، كيف تغير خطابه معهم قبل وبعد وصوله، ما كانت تحب أن يتكلم أحد عنه أية كلمة لا تريد أن تسمعها أو وصف يصفه بالوصولية والانتهازية، بل كانت تراه مثالا للإنسان الطموح الذى يسعى وراء هدفه، والذي يدفع ثمن طموحه هذا غيره من حوله فيصفونه بأبشع الأوصاف غيرة من نجاحاته، كما كان يقنعها بكره أصدقائه وكل من حوله ممن يعرفون حقيقته، ولم تكن تصدق أبدا أن وصوله هذا لأهدافه ليس بالطرق الشرعية كما يدعي أمامها، وأمامها فقط، فقد كانت علياء تعنى له الكثير.

كان يتمتع بمرونة عجيبة، لاعب ماهر يجيد كل الأدوار، بارع في تزييف الحقيقة، دوره ومهمته هو تضليل وخداع الجميع يزيف الواقع مقابل الوصول لمراده، كان كما يقولون يعرف" من أين تؤكل الكتف ".

آسر ككل انتهازى ذا شخصية جذابة، ذكيا يعرف متى يعزف على الوتر الحساس حتى يدغدغ مشاعر من يتعامل معه وله عنده حاجة.

هو ابن أسرة كبيرة العدد فقيرة، له ستة من الإخوة والأخوات، أربعة بنات وولدان، لأب كان يعمل ساعيا فى أحد المصالح الحكومية، رجل مكافح علم كل أبنائه بلا استثناء، متخذا إلى ذلك سبيل التعب والشقاء والعرق، وأم طيبة لا تعرف فى الدنيا إلا رعاية

أسرتها، فكان تعليم الأبناء متفاوتا فما منهم من أكمل الدراسة الجامعية إلا آسر أما الأخَوان الأكبر من آسر فقد اكتفيا بإنهاء الدراسة الثانوية الفنية، للتخفيف عن الأب الطيب تكاليف الدراسة، وأما البنات فكان حظهن من التعليم هو المرحلة الإعدادية ومن بعد اغتنامها يتم تزويجهن كما هو الحال في قُرانا، فالبنت تعليمها يكفي لأن تقرأ وتكتب، أما حلم الجامعة فهو لا يحق لهن، إذ أنه لن يسمح لها بالذهاب إلى الجامعة فى المدينة، وأيضا لشدة الفقر فى هذه القرى، فكان شأن أخواته هو شأن جميع بنات القرية، كان الأخوان الأكبر من آسر هما صاحبا الحظ الأكبر من ميراث طيبة والدهم، فقاما بإعالة الأسرة من بعده، وقاما بتحمل نفقات تزويج الأخوات، وتحمل نفقات الأخ الأصغر الذى أصر على استكمال دراسته بالرغم من موت الأب، وقلة المعاش المستحق لهم.

لآسر أيضا ابنة عم يتيمة، ورثت عن أمها أرضا زراعية فى بلدتهم التى هى مسقط رأس العائلة، والتى استولى عليها أهل والدتها بعد وفاتها ولم يعترفوا لهذه البنت بحق لها فى إرث والدتها حيث أن الإرث أصلا لم تناله الأم، فهم لا يعترفون بميراث البنات للأراضى الزراعية، حيث أنها إن أخذت الأرض سيأخذها منها أبناء لزوج ليس من العائلة، وبهذا تضيع الأرض التى يعتبرونها عرضا، ولا يرضون بأن يستحوذ عليه

غريب ويجب أن يظل فى حوزة رجال العائلة فقط، كانت سميرة بنت ريفية بسيطة طيبة القلب أحبها حامد الأخ الأكبر، وأحبته سميرة وكان قد طلب يدها من والده قبل وفاته، وكان زواجه منها سوف يتم فور إنهاء سميرة دراستها فى المدرسة الفنية التجارية، حتى انتقل الأب إلى جوار ربه، فسكت حامد عن الكلام المباح فى هذا الأمر، حتى يتمم رسالة والده فى الإنفاق على الأسرة، أما آسر الذى كان يفكر فى كيفية استعادة ميراث سميرة من أهل والدتها، فما كان ليترك هذا الميراث ليذهب إلى أخيه حامد قليل الحيلة وقليل الخبرة فى الانتفاع بالمال كما يراه، لذا دبر وقيعة بين سميرة وحامد ليثبت لها أنه على علاقة بفتاة أخرى وأنه أصبح لا يحبها، وأخبر سميرة أن حامد يحب ابنة الجيران فريدة التى يعرف الجميع حبها لحامد، وكان يتحدث إلى فريدة عن كيفية استمالة حامد إليها، ونجح فى إثبات هذه العلاقة الوهمية لسميرة، بتدبير لقاء بين فريدة وحامد وحديث عن الحب تسمعه سميرة، وتفهم منه أن هناك علاقة بين فريدة وحامد، وتصدق كل ما يقوله لها آسر عن نهاية حب حامد لها.

سميرة بعد هذا الحوار أصبحت صيدا سهلا ليقنعها بحبه لها وبأنه الأولى بها، وبأنه سوف يساعدها فى الحصول على إرثها المسلوب.

تزوجها وأقنعها أنه من دواعى الحصول على المال ورعايته، وجودها هناك فى البلدة، بجوار أرضها والمشروعات، وبالفعل وكل لها محامي صديقا له واستطاع بسهولة اثبات حقها فى الإرث، وتزوجها أثناء دراسته فى الكلية، وأيضا أثناء علاقته بعلياء، وأسكنها بيت والدتها الذي يحاط بحدائق ذات بهجة عاشت فيها سميرة، وأنجبت لآسر ثلاثة أطفال، بنتان وولد.

لم تكن علياء تعرف عن وجود سميرة شيئا ولا أي مخلوق غير أهل بلدتهم وإخوته، ولا تعرف عن وجود أطفاله خبر، وكانت تتعجب لعدم اهتمامه بموضوع الإنجاب الذى لم يكن يعنيه أو يهتم به، كما كانت هى تهتم ويؤرقها عدم وجود طفل فى حياتهما يربط حبهما برباط أبدي.

****

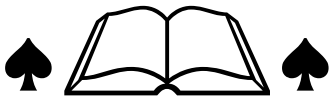

-٨-

ظلت جارة إياد العجوز تهتم بشئونه وتتابع عمل الخادمة التي تعمل عندها تنظف له البيت وتحضر له طعامه تحت رعايتها، ما كان إياد أبدا يصادق الغرباء ولكن وجه الجدة الودود منحه الثقة والراحة، وكانت تؤنسه عندما كان يشرب قهوته مسترخِيا على كرسيه الخيزران الذي وضعه مع طاولة، وزين الشرفة بتكعيبة عنب فوقها بالإضافة إلى شجرة من أشجار حي الزمالك العريقة ينام بعض أغصانها على حافة الشرفة الحديدية، ولكن كان أمرها عجبا لم فكلما يلتقيها بالشرفة تنظرإليه من تحت عويناتها، تومىء برأسها مسلمة، وتمنحه ابتسامة دون أن تتكلم، إلا قليلا ثم تدخل شقتها بخطى بطيئة مستندة على عكازها.

***

بعد غياب نهير عن الحفلات؛ كان هيثم يبحث عن ظلها بين الجالسين، فلا يجد إلا أطيافا منها تتراءى له فتتنقل هنا وهناك، تجلس بجوار علياء مرة، وتارة تختبئ خلف الأستار لتراه ولا يراها، ومرات يجدها

تجالس شخصا آخر؛ فتشب نار الغيرة في اغنياته، وينتهى من حفلته ولا يجد لطيفها أثرا.

فى إحدى الحفلات_وأثناء ما كان يغنى لطيفها السارى في مقلتيه_رآها ...؛ فلم يصدق فؤاده ما رأت عيناه، وظن أن الطيف يخدعه كما اعتاد منه، ولكنها كانت هى، فلم ينتظر لآخر الحفل حتى لا يفر طيفها فلا يجده، وأراد أن يطبق عليها ذراعيه فيعانق ذلك الطيف الذى يتلاعب به ونادى علياء وأسر إليها حديثا.

عادت نهير لغيرتها عندما وجدته يناجى علياء، وهمت لتغادر المكان، فلحقتها علياء ونبأتها بنجوى هيثم لها، وكان هيثم قد طلب من علياء أن تسألها إذا كانت تقبل أن يتقدم لها ويطلب يدها للزواج، فإذا وافقت لتطلب أغنيته الشهيرة "أيوه بحبك"، وبالفعل قامت نهير من مكانها واعتقد هيثم أنها ستخرج من المكان، فإذا بها تتجه نحوه وتطلب منه الأغنية التى أسرت لها بها علياء، وعندما سمعها هيثم تطلب الأغنية عانق السعادة، وأمسك بالميكروفون وكأنه يدا نهير، غنى وكأنه يقبل كفيها، فحملته السعادة بجناحيها إلى أعلى سماوات الإبداع، وغنى الأغنية كأحسن ما غنى طيلة مشواره الفنى، مما جعل الجمهور يلتفت إلى تلك الفتاة التى طلبت الأغنية، والتى ما زاغت عينا هيثم عن مكان جلوسها لمحة طيلة الوقت الذي يغنى فيه الأغنية، وبعد

أن انتهى هيثم من الغناء، نزل من فوق المسرح، ليمسك بيدي نهير ويجعلها تصعد لتقف بجواره على المسرح، معلنا بدون كلام، أن هذه الفتاة هى فتاة أحلامه.

استيقظ هيثم من حلمه الذي ما كان يرجو منه يقظة ؛ فقام يلتفت يمنة ويسرة يبحث عن نهير التى كان يتأبطها على المسرح فلم يجد إلا وسادته التى كان يحتضنها وسمع صوت أغنية جورج وسوف (كلامك ياحبيبي) تملأ أرجاء المنزل فعلم أن هشام لابد قد وصل ..

هو أخو هيثم الأكبر الذي يعمل طيارا، والمجنون عشقا بأغانى جورج وسوف، فيصاحب وجوده في البيت صوت جورج الذي يملأ الأرجاء.

قام من سريره يجوب المنزل بحثا عنه ..

فى الشرفة، وجده يسقى وروده النادرة التى كان يجلبها معه في أسفاره، والتى لم يحفظ هيثم اسم واحدة منها..ويترنم بالأغنية ويسمع صوته لها.

- أخيرا التقينا .. يا رجل لقد كدت أن أنسى أن لى أخا فى هذه الحياة ..

ترك هشام آنية السقيا من يده، والتفت ليعانق أخاه.

فانتابت هيثم الدهشة لما وجد عليه أخاه ...

- ما هذا؟ من أنت؟ أنت لست هشام أخي ..

تعالت ضحكاتهما وهما يتعانقان ..

- وهـذا هـو المطلـوب ألا أكـون أخـاك ... إنهـا محاولة لتغيير هذا الشبه الذي بينى وبينك والذي يسبب لى المضايقات طيلة الوقت، تركت شاربي ولحيتـي وقمـت بتهـذيبهما بطريقـة(دوجـلاس) للتحايل على ذلك التشابه الذي وضعه الخالق فى وجهينا.

قال هيثم ممازحا.

- وماذا عن التشابه فى الذوق، والأخلاق، وما يروق، وما لا يروق لكلانا فى الألوان والطعام والموسيقى ومعظم أمورالحياة، يا حبيبى نحن نتشابه فى كل شيء .. حتى أظن أننا توأمين، ولكن تأخرت أمى فى وضعى بضع سنين ..

نادت أمهما عليهما ليتناولا طعام الإفطار معها ..

وجلس الجميع على المائدة ..

- تعالا معا اجلسا بجوارى أحدكما عن يمينى، والآخر عن يسارى فقد أوحشتمونى واشتقت لجلستنا معا على المائدة .. كانت رحلات هشام؛ رحلاته في بداية عمله كطيار قصيرة، تستمر ما بين سبع الى عشر ساعات يمكن أن تطول أو تقصر قليلا، وكان وقتها يبيت كل يوم فى

المنزل بعد أن ينهى رحلته .. وكنا نتناول وجبة أو وجبتين معا يوميا .. أما الآن فلا نراه بالأيام.

- آه يا أمى كنت تلك الأيام أذهب إلى المطار قبل موعد رحلتي بساعة وأطير لمدة ٤ ساعات تقريبا، وبعد الوصول الى الدولة المتجه اليها أقف في مطارها حوالي ٤٥ دقيقة أو أكثر أقضيها ما بين كافتريا المطار، والتسوق فى السوق الحرة، كنت أستمتع فيها بالرحلات والطيران.
- نعم وكان دائما يحضر لي زجاجات العطور التى أحبها، ورابطات العنق ودبابيسها وأزرار القمصان، في رحلة العودة .. ليتها طالت فترة الرحلات القصيرة.
- ومن قال لك تثبت كفاءتك لتنتقل إلى الرحلات الطويلة.. ها أنت بعد أن كنت يوميا تبيت فى المنزل أصبحت تبيت يوما أو يومين فى أسفارك و رحلاتك، لتعود بعدها يوم أو يومين أيضا_أوف_ لتقضيهما فى المنزل وأكون أنا مسافرا .. فأصبح لقاؤنا وكأننا فى مطار نلتقى في ساعات (الترانزيت).

قالت الأم بأسى:

- بعد أن طالت رحلات هشام وأخذ نجمك يا هيثم فى الصعود أصبحت لقاءاتنا معا نادرة، لسفر أحدكما فى وقت تواجد الآخر فى المنزل، وبين هذا وذاك أبقى أنا وحيدة.

احتضناها وانهالا عليها بالقبلات، كى لا تتمادى فى أساها و يتلوه بكاء يعرفون أنه لن ينقطع ..

قال هشام مغيرا مجرى الحديث:

- أرجوك يا أمى لا نريد شخصية (الدراما كوين) الآن .. ثم استطرد..
- أكون فرحا جدا عندما أجد ألبومات هيثم وقد ملأت الأرفف في المتاجر التى أدخلها للتسوق، و أكاد أنبئ كل من يقفون فى المتجر أن هذا المطرب البارع الشهير أخي، فرِحًا فخورًا به، ولكنني كنت لا أسلم من سخافات معجبات أخي اللعينات دون أن يعرفن أنه أخي، وهذا للشبه الكبير بيننا، فكنت أتوارى عندما أتواجد فى الأماكن العامة حتى لا تصادفني إحداهن وتسألني السؤال الذى اعتدت عليه ..

أخذ هشام فى محاكاة طريقتهن فى التدلل وهى تسأله..

- هل أنت المطرب هيثم شكرى أم أنك تشبهه؟
- ألهذا غيرت فى مظهرك؟

- نعم يا أمى وليس هذا فقط ...
- أنا أيضا حين أتعرف حديثا على أحد لا أخبره أن هيثم أخي، حتى لو شعر بهذا الشبه بيننا، تحاشيا لأن يطلب مني موعدا ليقابل فيه هيثم أو يسألنى عن ألبومه الجديد، أو يطلب رقم هاتفه أو الأسئلة عن حياة هيثم وهل هو متزوج أم أعزب وما شابه من الأمور التى يطلبها المعجبون والمعجبات على حد سواء.

التقط هيثم طرف الحديث من هشام وأضاف ...

- وهل أنت اقتصرت على هذا .. ثم وجه الحديث لأمه:
- هشام يتجنب أيضا التواجد معي فى الأماكن العامة وكثيرا ما كان يرفض الذهاب الى حفلاتي...
- والله أنا أشفق على اخي من حياته المليئة بالصخب، والمعجبين والتى لا تمنحه مساحة للخلو بنفسه.

التقط هشام زيتونة كان هيثم قد مد يده لالتقاطها وألقاها في فمه قبل أن يستنقذها منه ..

ضحك هيثم .. قائلا:

- وماذا أفعل إن كانت دعوات أمك التى تدعوها علي مستجابه وهي السبب فيما أعاني؟

بفزع قالت الأم:

- أنا يا هيثم أدعو عليك؟! كيف يا حبيبى وأنا ليس لي إلاك وأخوك.؟
- ألا تدعين علي كل يوم وأنت على سجادة الصلاة فور انتهائك من صلاتك؟
- كيف هذا؟ أنا أدعو لك أن يحبب الله فيك جميع خلقه ..
- ولقد استجاب الله لك فجعلهم لا يتركوني أهنأ بحياتى ...

التقطت الأم أنفاسها وهى تبتسم .. وانطلق الفتيان في الضحك.

- جزاك الله بالخير لقد أوقعت قلبي ..

قام هشام معلنا انتهاءه من الفطور، وأخبرهم أن عليه الخروج .. للقاء صديق.

قال هيثم معترضا ..

- أنا لا ألتقيك إلا كل شهر مرة كيف تتركنى؟
- أنا أعرف جيدا إن لم أخرج أنا فسوف يأتيك الملحنون والمنتجون ومتعهدو الحفلات ؛ ولن أخلو بك ساعة .. ويضيع علي يوم الإجازة دون أن أستمتع به، وأنا أيضا أعطيت صديقا جديدا موعد لا أخلفه وانت تعرف مواعيدي.

- صديق جديد أم صديقة؟ هيثم ممازحا ..
- سامحك الله يا أخى وهل تعرف هذا عن أخيك؟ بل هو صديق مهندس التحق بالعمل فى شركة الطيران التى اعمل بها منذ فترة قريبة ولكننى أشعر أننى أعرفه منذ وقت طويل، وأنت تعرف أنا لا أشعر بذلك الشعور كثيرا مع أصدقاء العمل، تعرفت عليه منذ شهر تقريبا، فى أول رحلة قام فيها بالتأكد من أن الطائرة صالحة للطيران بأمان، وهو مهندس على درجة عالية من الجدية والاجتهاد فى عمله، أصبحنا قريبين طيلة هذه المدة ولكننا لا نلتقى الا بالمطار.
كنت فى السابق لابد أن أجرب الطائرة مع المهندس الذي يقوم باختبار الطائرة قبل أن أوقع بعده على دفتر صلاحية الطائرة، وقبل الاقلاع بها، أما بعد أن جاء إسلام فأنا أوقع من بعده، وكأننى أنا من فحصت الطائرة وتأكدت من صلاحيتها، بل ولا أشعر بالأمان إلا إن كان هو من فحص طائرتى التى استقلها.
- تصور أننى كنت أعتقد أنك أهم الأشخاص على متن الطائرة، ولكنني عرفت الآن أن صاحبك المهندس أهم منك ..

قالها هيثم ضاحكا ساخرا متحديا هشام.

تقبلها هشام ضاحكا ثم هجم على هيثم يلكمه في صدره وبطنه لكمات مداعبة متبعها بعناق شوق لأخيه.

- دعاني عند عودتى لزيارته وأخبرني أنه ينتظرني على الغداء فى منزله. اطمئن يا هيثم .. فلن أتأخر وسوف أتناول معك العشاء .. هذا إن كنت أنت موجودا ..

قالها وهو يفتح باب الخروج مشيرا لهما بالسلام ...

****

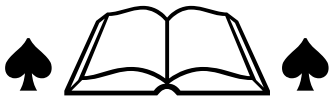

-٩-

فـي حجرتهـا تجلـس نهيـر علـى كرسـي هـزاز، ترتـدي قميص نـوم ورديـا خفيفـا، وتلفهـا إضـاءة خافتـة تـأتى مـن أبـاجورة موضـوعة بجـوار سريرها، وصـوت إليسا هامسا يأتيها بأغنية قلب وروح ..

[بردان حضني دفا بيكون ياعيوني بحبك انا بجنون بالشمس بضلك مثل الفي بالعتمي عيوني لعينك ضي حياتي كلا كلا خلقت ليك .. حبيبي خلقنا قلب و روح فراقنا منو شي مسموح .. مثل الشجره مع ضلا ما فيني كفي عمري بلاك .. ياريت لو نخلق من جديد تا إبدا حبك من جديد]

تستمع إلـى الأغنيـة والسكون حولهـا تـارة تضـم صورة هيثم الموشومة فى عينيها وتارة يطل مشهد هيثم وعليـاء أمـام عينيهـا فتنسـاب دموعهـا علـى وجنتيهـا، وتقطع الصمت والأغنيـة كلمـة سمعتها من شخص كـان موجودا فـى مكـان الحفل، أن هذه الفتـاة لا تفارقـه وأنهـا ربمـا تكـون حبيبتـه، تعـود إليسـا لغنائهـا العـذب مـع السكون، وتقطعه مرة أخرى صرخات تأتيها من خـارج الحجرة تنتفض نهير خارج الغرفة.

****

كانت تارا هي من ملكتِ قلبي، أشرقت شمس حبها فيه ولم تغب، حتى وإن غابت هى لايزال نور حبها مشرقا فى جنبات روحى ولم أزل على قيد حبها، وإن ادعيت النسيان.

كنت بعد أن انتهى العام الدراسي، وبدأ غياب تارا عنى يأخذ طريقه الأبدى، لست أدري ما جرى لى هل فقدت الذاكرة، لم يعد برأسي إلا مثقال حبة من خردل هي حبها تملأ كفتى ميزان ذاكرتى بماضيه وحاضره، وتملأ جعبة أملى فى الحياة معها في المستقبل.

تزلزل كيان معرفتى، فتصدعت كل أركانه، ولاتزال هي الصخرة المعلقة التى تسكن ذاكرتي، كل لحظاتنا معا أموت وأحيا عليها، أروح في غيبوبة فتتراءى لى فى أحلامى، عروس من الحور تضيء طلتها ظلام غيبوبتى، فأفيق على صورتها تحتضننى، وتبكي فيسيل القهرمع دمعها فوق جبينى، تتعثر يدى فى خطواتها للمسها فتسقط مشلولة الأمل، فتنفيني نظرات الحزن في عينيها إلى غيبوبتى مرة أخرى، لم يعد في قلبي إلا الشغف بحبيبتى التي أجهضت حبها لى، وتبرأت من جنينه الذي نبت فى قلبها، لا ترى عيناى إلا بريق عينيها السرمدي وشعرها يسترسل على كتفيها

كخيوط الشمس الغجرية الوضوح، وبراءتها المصلوبة أمام تهورى وحكمي الظالم، الذي لم تفتح فمها لتدرأ أيا من التهم التى بنيت عليها محاكمتى، و قطعت بها أواصر حبنا، وحكمتُ من خلالها بإقصائها عن حياتى- أقصد إقصاء حياتى عنى - فأنا بدونها لا أحيا ولن، ولاأزال معلق النظر بنافذة ما حدث، ولا يزال قلبى مصلوبا هناك على سياج لقائنا يقضم أصابع الندم، ولم أزل في غيبوبتى أصحو وأنام على ذكراها، يستمعون إلى مناجاتى لها دون أن يفهموا من حديثى شيئا، ولا أكاد أبين حروف اسمها التى ما كان لسانى ينطق سواها.

عشت محموما بالندم، بين الحياة والموت طيلة ثلاثة أشهر، هى فترة إجازتنا من الكلية، ولم يعرف الأطباء لمرضي مسمى، فقط حمى ليس لها اسم فى كتبهم، ولم يكتشفها أبرعهم بعد، وعندما بدأت فى التعافي، كنت أنتظر بجوار الهاتف لعلها تحدثنى، ولكنها لم تأخذ رقم هاتفى، فلم يتعدَ حديثنا سوى سويعات قليلة بعدها، قمت بطعن اللقاءات بقسوتى وغبائى، حتى خرجت ذات يوم مع صديقى هيثم بعد إلحاح من أمى، لعلى أتسلى مع أصدقائى وأفيق من شرودى الدائم الذى لاتعرف له سببا_ويكاد يقتلها_أخبرنى هيثم الذى كان يشعر بوجود عاطفة بينى وبين تارا، ولكنى لم أنفِ ولم اؤكد له ظنه.

إنه اخبرها عن مرضى وأنها طلبت منه رقم الهاتف للاطمئنان عليَّ، عدت من فورى إلى المنزل خوفا من أن تتصل في غيابى عن البيت، وبالفعل عندما سألت أمى:

- هل اتصل بى أحد وأنا بالخارج.
- نعم هناك فتاة اتصلت وقالت إنها زميلتك ولكنها لم تقل اسمها.

تأكدت أنها هى من اتصلت، ولسوء الحظ أننى خرجت فى نفس اليوم الذى أخفى القدر فيه لي أجمل مفاجآته، ليلطمنى بضياعها مرة أخرى، و أعود لمناجاتها وطلب المغفرة عن ذنبى، ولكننى سرعان ما أعود مرة أخرى أكابر، وأقف أمام ضميرى وهو يحاكمنى على جريمتى فى حقها، أطرز مرافعتى من خيوط بالية من العادات والتقاليد التى تربيت عليها أنا والكثير من جيلى والأجيال السابقة، وأزركشها بجواهر من أحاديث الدين، وأحاديث أخرى عن العفة، وربط هذه العفة بابتعاد البنت الشرقية عن أن يكحل عينيها بريق الحب البرىء قبل الزواج، وأنه لا يوجد هناك شيء يسمى بالحب البرىء، وأطرح كل أدلتى من علاقات زملائى وأصدقائى بالفتيات، وأن كل هذه العلاقات لم أسمع فيها أبدًا عن شىء يسمى بالحب البرىء، كلهم يلتقون بالفتيان لممارسة الحب بكل

صوره، حتى بالصور التى يوهمون فيها الفتيات ببراءتها، عندما يعدونهن بالزواج، وأنهم بتلك الوعود يصبحون أزواجا حقيقيين، ومنهم من يتزوج حبيبته عرفيا كى يؤكدون لأنفسهم أن علاقتهم هذه شرعية، ولكنها مخفية عن أهليهم وأكثرهم أدبا يكتفى بالملاطفات والسير معا متراشقي الأيدى، أو يطوق الفتى كتف فتاته بذراعه، أو مثل هذه الحركات التى يدعى الفتيان براءة نواياهم ويخبئون في صدورهم أمراض اللؤم وخبث الطوية، مع علم الفتيات أو انخداعهن باسم الحب، طرحت كل هذه البراهين على أنه ليس هناك ما يدعى بالحب البريء لأثبت أنها هى المخطئة، وأننى لم أخطئ، وأنها هى المذنبة، نعم هي من أذنبت بحقي وحق ربها وأهلها، هى من أحبت قبل أن تتزوج، والحب قبل الزواج فى عرف أوطاننا عار للبنت، مفخرة للشاب، هذه الأفكار سكنت في أخاديد العقول كعادات وتقاليد وسيطرت علينا عقيدة وجدنا عليها أباءنا، حتى ضاعت أنوار الحقائق في ضبابية الرؤية، هى قد أحبت حسن من قبل أن أخبرها بحبى، بالرغم من براءتها التى أنا متأكد منها، أعرف أنها أرق وأنقى من ورق الياسمين، وأطهر من غيث المطر الآتى من السماء قريب عهد بربه، كنت كلما عقد ضميرى تلك المحاكمة، أرى تارا أمامى غارقة في صمتها، لا تنبس بحرف، تتلألأ الدمعات بين جفنيها، يأبى كبرياؤها أن

يسقطها على رقيق وجنتيها، وتأبى عفتها الفطرية أن تنطق بتبريرات تأكيد وجودها.

أتذكر حديثنا الذى كان مقدمة الفراق، وكنا جالسين فى كافيتريا الكلية، طلبت لها كوب النسكافيه الذى كانت تفضله صباحا، تجلس قبالتى، واتخذت الشمس من عينيها قِبلة فصلت فيها صلاة الطهر، وسكن نورها مقلتيها فرأيت صورة من إبداع الخالق سبحانه وتعالى، فأشرق وجهها بابتسامة منحت للعالم بهاءه.

لكنني أبيتُ أن يطول إشراق بسمتها وسألتها عن حسن زميلنا فى الكلية الذى يسبقنا بعام فى الدراسة، وكان بين الحين والحين يأتي ليجتمع بنا فى مجالسنا معا.

- ماذا كان بينك وبين حسن؟

فوجئت تارا بسؤالى هذا فلا أحد يعرف بأنها يوما كانت على علاقة به إلا زملاؤها المقربون، و كل ما يعرفونه ظنا، لم تؤكد هى أو حسن هذه الظنون لهم يوما؛ إذ أنهما دائما لم ينفردا ببعضهما فى السير كما كانت سيرة المحبين من زملائنا بل كانوا دائما مع مجموعة من باقى الزملاء يروحون ويجيئون معا، فلم تأخذ علاقتهما أبدا صورة كتلك المعروفة عن المتحابين من شباب وفتيات الجامعة.

قالت بثبات الصادقة التي لا يأتيها الكذب من بين يديها، ولا من خلفها.

- هو زميل مثلك تماما.
- مثلى تقولين؟!
- نعم أقول مثلك، وهل لك ما يميزك عن باقى الزملاء كى أميز غيرك؟
- ولكنك كنت تحبينه، هل تنكرين ذلك؟
- ومن قال لك ذلك؟
- قال لى آسر، وهو يستعرض فتيات الدفعة كل واحدة برفيقها وذكرتك وقلت إنك أنت الوحيدة دون رفيق، فقال لى بخبث، وهو يعرف جيدا أننى أميل لك، بأنك كنت تحبين حسن، وافترقتما لأن والده أراد تزويجه من قريبة له.
- اه آسر هو من أخبرك إذا؟
- هل ما قاله ليس صحيحا؟.
- وهل قال لك أننى وحسن كانت علاقتنا كباقى من تراهم من ذوى العلاقات؟ أم قال ما بيننا فقط هو إحساس لم يتعداه لشيء آخر، وأن ما باعد بيننا هو النصيب؟ وبأننى لم أُهِن كلمة الحب التى هى كنزى الذى أدخره لمن سيكون زوجى، ولم أقلها لا لحسن ولا لسواه ولن؟
- أنا رأيتكما تجلسان معا تدرسان فى الكافيتريا.

- مثلما كنت أجلس معك أو مع أى زميل، هل وجدت فى جلستنا شيئا خطأ؟

- ولكنه ليس كأى زميل هو من كنت تحبين، وعلى كلٍ، أنا لا يعنينى ذلك، كل ما يعنينى أنكِ أحببتِ رجلا غيرى، وعرف الحب طريقه إلى قلبك قبل أن يعرف قلبك حبى، ظننتك لن تكونى إلا لى، وليس هناك فى قلبك قبلى ولا بعدى، مثلي مثل الذي تمنى المانجو وحين قضمها، وجدها برتقالا..

صمتت تارا وعيناها لم تصمتا، تملؤها كثير من الأحاديث التى ضنت أن تبذلها لفتى بتفاهتى، هكذا قرأت نظرتها.

فقط قالت كلمة تركتها فى عقبها، وهى تنظر للغبار الذى لم يبدُ إلا عندما وقعت عليه أشعة الشمس.

- هل ترى هذا الغبار يا إياد ... أنت عندى كهذا الغبار، كل من على الأرض كهذا الغبار .. أنا لم أغضب ربي، وهو أعلم بأننى لم أفعل ما ينال من براءتى، ليس لك ولا لغيرك ؛ ولكن لوجهه تعالى، فلست ممن تغضب ربها لأي سبب وإن كان قلبي يوما يقودني إلى إغضاب ربي فإنني أمزقه بيدي، ولا أسلك مسالك الغواية، وكل ما أتمناه لك أنك يوما ما تلتقى بمن تعتقد إنها لم

تحب قبلك، وتكون أنت فى قمة سعادتك بهذا ... تعرف أن قلبها كان لغيرك لتفهم حينها أننا فى عالم لا يخلو من الحب وأن حبيبتك يوما ستصبح زوجة لغيرك إن أنت تركتها وسوف تأخذ أنت حبيبة غيرك، ربما يومها تتغير أفكارك وتعرف الأمور بحقيقتها، وليس بمثاليتها المزعومة، فأنت لست بالمثالى يا إياد، ولا يوجد لهذه الكلمة معنى فى هذا الوجود فالأرض لا تحمل ملائكة يعيشون بين جنباتها.

ثم تركت كلماتها تنخر في عقلي وأذنيَّ وذهبت.

****

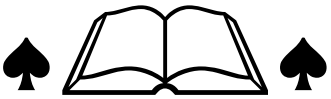

-١٠-

مرت أيام الدراسة بعد ذلك اللقاء خالية من لقاءاتنا، خالية من أنفاسها التى كانت تمنح رئتيّ حياتها، لم نلتقِ أبدا وحدنا، ولم تترك تارا فرصة ليجمعنا لقاء منفردين، حتى إنها كانت عندما ترانى وحيدا فتحول طريقها إلى وجهة غير التى أكون فيها إن كانت هي أيضا تسير بمفردها بدون أصدقائنا، حتى لا تلتقى بى ولو مصادفة، كنت أنتظرها بالساعات فى المكان الذى اعتدت أن أنتظرها فيه فى لقاءاتنا المعدودات ؛ لكنها لا تأتي، وكنت أعرف بعدها بالمصادفة من أي زميل أنها كانت تمر بجوار مقعدي لكنها غيرت طريقها فجأة فأفهم أنها عندما رأتنى عادت أدراجها، ولم تكمل مسيرتها إليّ.

انصرفت عنى بكاملها؛ إحساسا ووجودا؛ لكننى عندما كنا نلتقى فى وجود أصدقائنا أحس بمدى قهرى وظلمى لها، ولكننى لم أكن استطيع تغيير موروثى الفكرى، ولا أقبل أن يكون قلبها قد سكنه غيري حتى وإن كنت متأكدا من أننى يوما لن أجد من تحبني مثلها. دخلت نهير حجرة أمها لتجدها تقطع الوسادة بأسنانها

وآلام الصداع تكسر عظام رأسها الصغير، ويكاد يخترق عينيها الذابلتين من أثر المرض عليهما.

- اه ... اه
- ماما حبيبتى هل عاودك الألم من جديد.

قالتها وامتدت يدها إلى"الكومود"تفتحه وتخرج الدواء المسكن.

- نهير أعطنى المسكن حبيبتى.
- ها هو؛تفضلى ..

تمد يدها بالدواء وزجاجة الماء الصغيرة الموضوعة بجوار سرير أمها ..

- لابد أن أحدث الطبيب وأيضا أخي ..
- لا.لا احضرى لى الطبيب، اتركى أخاكِ فى عمله .. لا تزعجيه فأنت تعلمين أن عمله حساس ربما يخطئ بسبب انزعاجه، اتركيه يعلم عند حضوره.

اتصلت نهير بالطبيب الذى أخبرها بسرعة حضوره.. انتظرت بجوار والدتها التى لم يفدها المسكن، وبدأت تظهر أعراض الرؤية المشوشة عليها وكأنها ترى نهير بصورة مزدوجة..مما أصاب"نهير"بالذعر عندما أخبرتها بما ترى.

- هذا هو ما حذر منه الطبيب سابقا من الأعراض التى سوف تزيد عليها بعد الصداع .. نتيجة تمدد الأوعية الدموية بالمخ ..

دخل الطبيب وأجرى الفحص لوالدتها ثم أعطاها حقنة مسكنة هدأت من آلامها وراحت فى نوم عميق. خرجت نهير والطبيب من حجرة والدتها مودعة إياه إلى الباب ..

قال الطبيب وقد ظهر عليه أنه قد أعيته كل الحيل ..

- لابد من السفر كما أخبرتكم من قبل، الحالة ستسوء أكثر، ومن الممكن أن تتعرض لنزيف بالمخ إن لم نتعجل فى السفر، ولقد تحدثت إلى الطبيب المعالج فى المانيا، وسوف يتم حجز غرفة في المستشفى الذى يعمل به بمجرد أن تخبروني بموعد السفر.
- إذاً.سوف نسافر في أقرب فرصة، وسوف أحدثك لأخبرك بموعد السفر.

خرج الطبيب وهُرعت نهير إلى الهاتف لتخبر أخاها بما حدث، وبضرورة السرعة فى حجز تذاكر الطيران للسفر إلى المانيا، والاستعداد للسفر.

-١١-

لم أكن أعلم السر وراء كراهية أبو عمر للعراقيين سواء كانوا أيزيديين أو مسلمين، فقد كان سيء المعاملة للجميع حتى إخواننا العراقيين من انضموا إلى جند الخلافة.

ذات يوم ونحن نقوم ببعض الأعمال التكنولوجية ومتابعة الصفحات الخاصة بالدولة ظهر على صفحة من الصفحات صورة للرئيس صدام حسين من أحد المواطنين يتذكره ويمتدح أيامه فما كان من أبي عمر إلا أن بصق على الصورة وكال السباب لكليهما المادح والممدوح، وجدت الفرصة لأسبر أغوار كراهيته الدفينة، فقلت له مازحا، يا رجل هل قتل صدام أحد والديك فانطلقت منه جملة لم يكن يحسب أن تخرج من فيه بهذه السهولة وحاول حبسها بين شفتيه ولكنه كان قد فات الأوان فالكلمة كالقذيفة التي إذا خرجت لا يمكن أن تعود.

- بل قتلهما معا ومعهما أخي الرضيع.

بينما أتحدث أنا وأبوعمر سمعنا صوت رجل يصرخ فى حجرة التعزير، هرعت أنا وهو إلى الحجرة فوجدنا أبا الخطاب وقد ربطه القائد من رجليه ويديه، وعلمت

أنه سيتم وضعه فى هذه الغرفة لمدة ثلاثة أيام وكان هذا أحد وسائل العقاب الذى يعاقب بها أفراد التنظيم.

علمت بعدها إن جناية أبي الخطاب، كانت أنه قام بحماية إحدى السبايا التى كان يضربها مالكها، وحماها خلف ظهره مانعا إياه من جلدها بسوط التأديب، وطبعا هو بذلك يفسد عليه سبيته ويقويها على عدم طاعة مالكها فاستوجب العقاب.

عندما هاجمنا سنجار قتل الكثير أثناء الغزوة وفر الكثير إلى جبل سنجار وهؤلاء تم حصارهم حتى مات العديد منهم جوعا وعطشا ومرضا، كان دوري هو التعامل مع رجال الأيزيديين، اقتدناهم جميعا إلى القرية حيث تم فصل الرجال عن النساء والأطفال، ثم اقتدت والمسؤولون معي الرجال بالمركبات وأخذناهم إلى أطراف القرية، وقف أمير المجموعة يعرض عليهم الإسلام، مخبرا إياهم أنهم كفار ولابد أن يُسلموا ليَسلموا، رأيت في عيون الرجال الأيزيديين قهرا ما كنت أظن أنني أراه يوما في عين رجل شديد قوى البنية كهذا الرجل الذي يدعى (مَمّو) والذى اسماه الأمير محمود بعد إسلامه،رأيته يرتجف ويخبر الأمير أنه سيسلم بشرط أن ينال امرأته زوجة في الإسلام كما كانت زوجته في الأيزيدية، وعندما قبل الأمير شرطه على أن تسلم امرأته أيضا أو يشتريها إن أبت أن تسلم،

تهللت أساريره وقال له إن جعله يلتقيها سيقنعها بالإسلام لأنها امرأة صالحة مطيعة وهذا بالفعل ما حدث، أسلمت امرأته (روسيتا) التي سميت بعد الاسلام بفاطمة وأعطاهم الأمير بيتا ونالوا من العطايا ما جعلهم بعد ذلك من أوفى الرعايا لدولة الخلافة، ومن رفض الإسلام من الأيزيديين تم قتله فى الحال، ومن قبل الإسلام منهم من الشباب تم وضعه في عنابر بعد أن طلبنا منهم الاغتسال استعدادا للنطق بالشهادتين وتسليمهم ملابس جيش الخلافة، وتزويجهم من بعض الأيزيديات اللواتي قبلن الإسلام بعدها قمنا بتعليمهم مباديء الإسلام، في المعسكرات، منهم من كان نقيا لدرجة انه كالورقة البيضاء، التي لا يظهر بها إلا ما نكتبه نحن، تتقبل كل ما نمنحهم من معلومات، يتقبلون أي فكرة بلا مجادلة أو نقاش، رغم أن النقاش كان ممنوعا وكان دائما ما يسميه الأمير جدالا منهيا عنه لأن طاعة الأمير واجبة بلا جدال.

أما النساء فقد تم نقل المتقدمات في السن وفصلهن عن الصغيرات والفتيات، وقد تم قتلهن بعد أن رفضن الإسلام الذى عرض عليهن -هذا ما قاله رجال التنظيم - وعلى ما أظن أنه لم يحدث وأن تم تصفيتهن، فهن لسن ذوات فائدة ترجي من ورائهن، بل يشكلن عبئا على الدولة، وتم أخذ الفتيات، لم يتم أمر الفصل بسهولة فقد كانت الفتيات متشبثات

بآبائهن وأمهاتهن يصرخن، فما كان من رجال التنظيم إلا أخذهن عنوة بمن فيهن من هن تحت سن الأحد عشر عاما لكي يتم استخدامهن للاستعباد الجنسي والسبي.

كان أبو حذيفة المسؤول عن فحص الأطفال من الذكور كما تفحص الشياة، يرفع الطفل ذراعه إلى الأعلى وإن لم يجد أبو حذيفة الشعر نابتا تحت إبطه يضمه إلى الأطفال، وإن وجده نابتا، وضعه فى زمرة الرجال.

بعد الفرز مضوا بالرجال بعد أن أوقفوهم طوابير، إلى شاحنات وكدسوهم بها، أخذوهم إلى مكان بعيد عن أعين الأطفال والنساء، وكانوا من قبل قد خيروهم إما الدخول فى الإسلام وإما الذهاب إلى الجبل، والخروج من قريتهم، فاختار الرجال البقاء على ديانتهم والخروج إلى الجبل، وما كانت هذه إلا مكيدة كي يطمئن الرجال فيرفضوا الإسلام بكامل حريتهم، فيكونون بذلك اختاروا الموت بكامل حريتهم المسلوبة، وهناك على الجبل وجدوا الموت ينتظرهم.

أما النساء فطالبوهن بخلع أغطية الرأس ليستبين لهم أعمارهن، وتم تصنيفهن، إلى مسنات، وأمهات صغيرات برفقة أطفالهن، والمتزوجات حديثا، والصغيرات الأبكار اللاتي لم يتزوجن.

كانت بعض الفتيات يدعين أنهن متزوجات محاولة منهن لإنقاذ أنفسهن من السبي فكن يمسكن بأطفال يعرفهن مدعيات أنهن أمهات هؤلاء الأطفال،عندما بدا لهن أن هؤلاء المسلحين غير مهتمين بالنساء المتزوجات والأطفال، واحدة من النساء قصت شعر بناتها كي يظنوا أنهن صِبية كي لا يفصلونهن عنها، والأخريات لطخن وجوههن بالتراب وشعرورهن كي يقللن من جمالهن فلا يفتَن بهن ويعجبنهم، ولكنهم ما كان يجدى معهم كل ذلك، فقد كانوا يجبروا الفتاة على الاستحمام ليروا حقيقتها.

*****

جلبهار هي السبية التى حاول أبو الخطاب حمايتها من تعذيب مالكها.

رأيتها واقفة في زاوية الحجرة تحتمى بالجدران وتخفى جسدها العارى خلف ستارة، من هول ما رأت من مالكها الذي أهان إنسانيتها عندما أمرها بالمعاشرة بأفعال حقيرة أبت كامرأة نقية أن تفعلها معه فما كان منه إلا أن نزل عليها بالسوط وهي عارية فجعلها كالتى حرقت بنار السموم.

أمسكتُ بثوبها الملقى على الأرض وناولتها إياه ثم وليتها ظهرى لترتديه بلا حرج وعندما انتهت سألتها.

ما اسمك؟

- اسمي كلبهار .. ..نطقتها بالكردية.
- هل تعرفين معناه؟
- زهرة الربيع
- اسم جميل على مسمى أجمل.
- هو اسم اختاره أبي على أسم زوجة الأمير صاحب الكف الذهبية.
- ومن هو صاحب الكف الذهبية هذا؟
- انها قصة طويلة ملحمة تروي الظلم الذي تعرض له الشعب الكردي على يد عباس شاه الصفوى في ايران والسلطان العثماني فى تركيا، يبدو أن الظلم هو قدرنا.
- وهل هناك من ضير في أن تروي لي تلك الملحمة؟ ومنها أعرف من هي كلبهار هذه ولماذا اختار لك أبوكِ اسمها؟
- سأحكيها لك عندما أستطيع الحديث أما الآن فأنا أود أن ارتاح ..

أرسلتُ في طلب طبيبة تعالج جروحها وخرجتُ تشغلني تلك الزهرة وحكايتها التى شغفت بها.

****

-١٢-

اختلى هيثم بنفسه ولم ينم ليلته تلك، بات ساهر الجفن تحتل مقلتيه صورة تلك الفتاة الفاتنة الأسيرة، باكية العينين، تحلل من كل قيدٍ ومهمة، وظلَّ يغني بعض أغنياته القديمة التي كانت تملأ_ومازالت_أفواه الشباب بالتغني والغناء، إلى أن صفا رأسه من كل ما كان يملأ تلك الآنية الصدئة بالأفكار التكفيرية القاتلة، لم يرها كافرة تستحق القتل أو السبي كعاهرة ليس لها كرامة، ولكنه رآها فتاة نقية فقط لم تعرف عن الإسلام ما عرفه هو، ولم تولد مسلمة كما منح هو الهداية إليه بشهادة ميلاد لم يكن له فضل في امتلاكها، صفا رأسه إلا من طيفها، فغفا كفتىً غريرا دوّخه السهر، وهو يفكر في فتاة أحلامه، التي ما كان يظن أنه سيلقاها هنا في هذه البلاد، ولا على هذا النحو من اللقاء الذي يفتقر إلى كل أشكال الرومانسية، وما كان يصدق أنه يوما سيعرف الحب بعد أن أذاقه الحب الأول مر الفراق.

وعلى حين غِرَّة داهمه الفجر، فسمع النداء قبل أن يغمض لعينيه جفن فقام للصلاة.

بعد أيام من لقائي بجلبهار قادني مجموعة من الأخوة إلى المكان الذى توجد فيه السبايا، وقال لي مبتهجا مقهقها:

- اليوم هو يوم التوزيع إن شاء الله تعالى.
- ماذا سيحدث وعن أى توزيع تتحدثون؟
- هنا يحدث تبادل السبايا أو بيعهن أو المقايضة عليهن بالمسدسات أو البنادق، ومن الممكن أن يهادي رجل أخاه بسبية من سباياه.

رأيتها مرة أخرى - جلبهار -الفتاة ذات ملامح هادئة تنتمي إلى الشعب الايزيدي، لها عينان بلون العسل المصفى، يملؤهما حزن بمدى الأفق واتساع البحر، أهدابها تنوح كالنوارس فى وقت الغروب، وتتشبث بهذه الأهداب دموعا لا تسقط على وجنتيها، فهي تتحلى برباطة جأش وقوة لا تبدِو ضعفا، ولا يستبين لها هوان، كان شعرها طويلا مجعدا منسدلا فوق ظهرها، بشرتها الخمرية تحمل جمالا هادئا، عرفت منها بعد ذلك أن أفراد عائلتها لم يتم القبض على كثير منهم، ولم تعرف مصيرهم، ولكنها تعرف مصيرها هي حتى وإن نجت من جيش الدولة، فإنها لن تنجو من عشيرتها، فالفتاة التى تختطف من قبل هذا التنظيم، فمصيرها القتل، لدفن عارها الذي جلبته معها، تم أخذها مع مجموعة أخرى من المقاتلين، وتم الاعتداء عليها جسديا، وتم ضربها مرات عديدة، ونزعوا عنها غطاء رأسها لأنها أصبحت سبية لا يصح أن تتشبه بالحرائر وتغطى عورتها، واستمر سيدها في تعذيبها_حتى أتى

يوم خلاصها من بين براثنه_على يد أبو الخطاب؛ الذى قتل بعدها بأيام لتكراره نفس الفعل مما أكد أنه ليس مؤمنا بعقيدة الدولة.

بعدما أُسرت جاءها أحدهم يدعوها مرة أخيرة إلى الإسلام.

- أنت الآن مخيرة ما بين الإسلام والعيش كحرة تتزوجين مسلما، أو تظلين على ديانتك، وفى هذه الحالة ستكونين سبية تباع أو توهب إلى أحد رجالنا، ففي كلا الحالين أنت امرأة لابد لك من رجل يرعى مصالحك وتكونين تحت ولايته، وسيعاملك الرجل الذى يشتريكِ معاملة طيبة كما أمرنا الإسلام بمعاملة السبايا.

فهزت رأسها بالرفض.

لم يكن ما قاله يتصل من قريب أو بعيد بحقيقة ما يحدث، ليس هناك من يعامل السبايا معاملة الإسلام فقط كانوا لا يضربون الوجوه كما يدعون، ولكن كان جميع البدن مرتع للتعذيب، والضرب والاستباحة.

تقدم أحد الإخوة ليشتريها بعد أن رفضت الإسلام وأبت أن تترك دينها، راحت عيناه تتفحص جسدها بشهوة جعلتها تشعر بالغثيان، ثم مد يده إلى عنقها وأخذت يده فى الانحدار البطئ إلى مقدمة ثوبها، هنا

انتفضت جلبهار ممسكة بذراعه، متصنعة القوة وجسدها النحيل يرتجف، وتساقطت عبراتها اللواتي كن متشبثات بأهدابها تأبى السقوط، سقطت الدمعات وسقطت معها جلبهار مغشيا عليها، فنقلها إلى سكنه وقام باغتصابها وهي في إغماءتها فأفاقت لتجده يعتلى كرامتها وينهش إنسانيتها بكل وحشية.

كانت كلمات الحسد تنطق بها عينا أبي عمر؛ لكنه أخفاها طويلاً تحت لسانه.!!.

عندما رأى أن جلبهار أصبحت من نصيبي أنا عندما منحنيها الأمير بعد أن اعتبرها سيدها الأول آبقة ولن تصلح لخدمته بعد أن منعه عن عقابها أبو الخطاب عندما سمع استغاثتها من التعذيب وفي يوم السوق ذهب ليبيعها فاشتراها الأمير وأهداني إياها لأنني كنت أرفض أن أشترى سبايا، وما فتئ أبو عمر يحدّثنا مشدوهاً بما رأى من فرحة سكنت عيني جلبهار بمجرد أن علمت أنها ستكون لي، يحدّجنا بعينيه القنفذيتين، يلتمع فيهما خبثٌ عتيقٌ سكن معه رحم أمه، يمازج مكرًا حقنوه به من الوريد إلى الوريد بدروسهم التي كانوا ينفثونها تلافيف رأسه، فقد أجادوا غسل دّماغه المهيأة منذ الطفولة لسكنى الأفكار الدموية، فبات آلياً بلا روح، يفكر كما يريدون، ينفذ كما يفكرون، ولكنه إنسان تتورّم

أناهُ باضطرادٍ، ويأكل الحسد أوداجه، تتخافت في سريرته بقايا نزعته الغريزية الحيوانية، وتختلط بدمويته الفكرية الجديدة مُشَكِلةً مسخٍ ولد على يدي الجيف العفنة من الدعاة المدعين، وصنعة ألسنتهم المتلونة، التي كانت تارة تهادن الحكومات وتارة تكفرها، كمن يخرج من ثوبه مراتٍ، مثل أفعوانٍ يخرج من جلده يبدله كلّ حين.

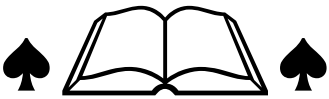

-١٣-

حاولت أن أرد هدية الأمير فأنا لا أحب الرق رغم اقتناعي بوجوده طالما ذكر بالقرآن الكريم رغم كل المواثيق الدولية التى منعته، ولكن ممو (محمود) أغلق فمي بكلمات شكر للأمير ووكزني بكوعه وكزة خفيفة وهمس حتى لم يسمعه غيرى أن رد هدية الأمير لا يجوز ويوغر صدره ضدى، تقبلت الهدية وأخذت جلبهار إلى بيتى الذى كان أيضا هدية إضافية لوجودها معي بعد أن كنت أبيت في المعسكر مع الإخوة.

عندما دخلنا المنزل طمأنتها أننى لن أمسسها بسوء ولن ألمسها كجارية وأنها ستعيش معي حرة، تنقلت بين حجرات المنزل الأربعة وهى خلفى، فطلبت منها أن تختار الغرفة التى ترتاح لأن تكون غرفتها، نظرت لى بتعجب وأسى، وسألتنى:

- وهل للسبية اختيار؟ أى حجرة تختارها سأرضى بها.

أمسكتها من يدها لتكون بجوارى لا خلفى وأجلستها على كرسى وذهبت أبحث عن ورقة وقلم، وجدت مكتبة بها أوراق وكتب دراسة لأطفال، وكتبت لها ورقة تفيد عتقها، وقدمتها لها.

- ها أنت حرة ولست سبية، اختارى ما تشائين.

تعجبت من فعلى معها لكن هدأت أساريرها وبدت عليها السكينة، ثم انتفضت منزعجة.

*****

كان انزعاج جلبهار لكوني عتقتها سببه خوفها من أن أتزوجها، وتظل حبيسة هذه العلاقة للأبد، أما السبى فهى تعرف انه فترة ولن تطول وأنها يوما ستتحرر منه.

ربتُّ على كتفها وأجلستها بجوارى.

- أنا لم أحررك لأجعل الزواج أسرا جديدا لك يا جلبهار بل لتكوني حرة في كل شيء، ولك الآن أن تمكثى معي في أمان كأخت لى أو أن تتركي البيت كحرة.

هدأت أساريرها وندت عن عينيها دمعة علقت بين المقل والهدب وقالت بتوسل:

- إن كنت حقا كما تقول فلا تخبر أحدا أنك قد حررتنى.
- لماذا؟
- لأنهم لن يتركونني بلا رجل، أنا ارتحت لك منذ رأيتك بعد أن جلدنى أبو عاصم، وارتحت عندما منحنى لك الأمير ولكني لم أكن أحلم أن تعتقني،

ولكن إن أخذني رجل غيرك لا أعرف ما سيفعل بي.

ابتسمت ووعدتها بأن عتقها سر سيظل بيننا ولكن ورقة عتقها ستظل معها حتى إن متُ لا يمكن لأحد أن يبيعها كسبية.

رأيت معصميها بهما أثر قطع أخبرتني أنها حاولت الانتحار أكثر من مرة، كنت أعرف آخرهم التي كانت بعد تعذيبها على يد أبي عاصم، سألتها لماذا تنتحر ولا تسلم لتسلم من أذى الاستعباد.

كشفت غطاء رأسها واستراحت في جلستها وقالت بابتسامتها الساحرة:

- الموت هو مصيرى المحتوم إما على يد هؤلاء الوحوش أو على يد أهلى، فالمراة المغتصبة مصيرها القتل، فهي عار لابد التخلص منه، يثبت لهم انهم ليسوا رجالا لذلك ينبغي أن تنقى سيرتهم من هذه الوصمة، هذا ليس في الكرد فقط هذا دأب رجال العرب أجمعهم، يتخلصون من الضحية ويتركون المعتدى، اما بالنسبة للكرد فقتل النفس اهون من الاغتصاب، كنت وعدتك ان أحكي لك قصة سمِيَتى التي تمنيت أن أكون مثلها.

ألقت بخصلات شعرها التي مالت تقبل وجنتها خلف ظهرها فبدت كلمات موشومة على رقبتها باللغة الكردية انتبهت فامسكت خصلاتها وحاولت قراءة المكتوب فلم أفهم، استفسرت عن المكتوب فقالت:

- هذا وشم صنعته لى في المعسكر إحدى السيدات.
- كيف صنعته ومن أين أتيت بالآلة التي تصنعه.

قهقهت وكانت أول مرة أرى فيها ضحكتها وأسمع رنينها وقالت:

- الأدوات موجودة من الطبيعة، بعض من تراب الأرض ولبن من إحدى السيدات المرضعات، ودبوس هو قلم الكتابة على الجلد ثم تضع اللبن والتراب على الدم النازف من مكان الكتابة فيثبت الوشم.
- عرفنا سر الوشم فما سر جلبهار.
- هذا ما ستعرفه عندما أحكي لك قصتى التي بدأت منذ ما يقرب من خمس مائة عام.

قلت ضاحكا حتى مالت رأسى للخلف:

- إذاً أنت جنية ولست بشرا.

ابتسمت قائلة:

- لا بل بشر وهذه الحكاية هى التى سألتنى عنها يوم التعذيب عندما سألتنى عن اسمي وسأحكيها لك.

جلبهار التى أنا سَميتها كانت زوجة أمير خان بطل قلعة دمدم، والذى أطلق عليه صاحب الكف الذهبية أمير (وان)لأنه كان كريما في عطائه من الذهب فأسموه (خان ذو الكف الذهبي). بعد شاه بهشتى حاكم أذربيجان ومجيء الروم الذين استوطنوها ساندت العشائر الكردية الروميين، وكان هناك رجل اسمه شاه محمد من أمراء برادوست، وبأمر من حاكم الروم عين حاكما على برادوست بباكستان، إلا أن أمير خان لم يرضخ لأوامر هذا الحاكم الرومي، ففي كل مرة كان يأوي إلى مناطق أمراء الكرد، ومنهم عمر بك حاكم (سهران) وفي حادث لموقف من أعداء عمر بك، كسر ذراع أمير خان وأطلق عليه اسم (جولاق) بمعنى (الأغضب) وفي تلك السنين عندما كان الشاه الصفوي في أذربيجان في جولة له نحو (نيره وان) أسرع إليه الأمير وعرض عليه طاعته كأحد رجاله المخلصين ومنها عينه الشاه حاكما على (تهركه وهرومه ركهو هر) هدية له ولقبه بلقب (خان) وكذلك أهدى له مقرا في (ورمية وشنو) في اذربيجان حيث كانتا تحت سيطرة شاه بهشتي سابقا.

قطع اتصال أبو عمر حديثنا، فسكتت جلبهار عن الكلام المباح.

-١٤-

لم تكن علاقة هيثم بأبي عمر جيدة، كل منهما يبدى لصاحبه غير الذى تكنه له نفسه، أثارت كلمة أبو عمر عن صدام كثيرا من التساؤلات في عقل هيثم، يريد كمعرفة سبب هذه الكراهية التى تتشبع به نفس أبي عمر للعراقيين عامة لصدام حسين خاصة، حاول مرارا أن يستنقذ هذا السر من بين جوانح أبي عمر ؛ لكنه كان حريصا ألا يخبره بشيء عنه، كان لابد من حيلة تجعله يفشى سره، لابد من مثير يجعل أبا عمر يغضب فيثور ويحكى؛ هذه كانت طبيعته، الغضب يعميه ويجعله أقل حرصا.

أثناء قيامهم بعملهم على صفحات التواصل حيث كان هيثم وأبو عمر يديران مجموعات دينية ترد على أسئلة الشباب الذى يريد أن يزيد معرفته بالدين الإسلامى سواء أكانوا عربا أم عجما، وكانت سببا في انضمام الكثير من هؤلاء الشباب لجيش الدولة، قرأ هيثم منشورا من المنشورات التى تمتدح صدام حسين والشعب العراقى وتصفه أنه شعب النشامى(الشجعان) بصوت عال ثم أطلق صيحة تأييد لهذا الوصف ..

- نعم هم شعب الشجعان الأبطال.

غضب أبو عمر ونعق كغراب مكلوم.

- بل شعب الجبناء الذين اغتصبوا النساء وقتلوا الأطفال في الكويت ..

نظر هيثم إليه نظرة تشعره أنه لا يصدق ما يقول وأشاح بوجهه عنه قائلا:

- كل هذه أحاديث ذكرها الكويتيون ولا دليل عليها وهكذا يحدث عندما تنشب حروب يدعي كل طرف على الآخر ما ليس فيه.

أثارت كلمات هيثم غضبه أكثر وأراد اثبات ما يقول حتى لا يكذبه هيثم.

- لا ليست أحاديث الكويتيين بل هي مما رأيت بعيني.
- أتهرف يا رجل؟ أثناء حرب الكويت كنت لاتزال طفلا، كيف رأيت الحرب وسبرت أغوارها؟!

نعم كنت طفلا لم أزل في العاشرة من عمرى .. وكأنه يحدث نفسه ولا يرى هيثما أمامه، تخلى أبو عمر عن حرصه وأخذ يسرد ما رأى.

*****

- كانت أمى يوم هجم العراقيون على الكويت في المشفى حيث كانت تعمل طبيبة، وكان ذلك اليوم هو يوم سهرها، عندما تأخرت، نبذ أبي خوفه على أنا وأخى الرضيع وحملنا في السيارة وذهبنا إليها كي نأخذها ونهرب إلى مصر، تاركا كل شيء خلفه، فارا بنا مما يمكن أن نجده في بلد مغتصب، وصلنا إلى المسشفى وكنت بجوار أبى وهو يحمل أخي نجوب حجرات المستشفى باحثين عن أمى، ويا لهول ما رأينا الجنود النشامى يغتصبون الممرضات، والضباط الأشاوس يغتصبون الطبيبات، (تلك اذا قسمة ضيزى) والأطباء مسجونين في غرف حتى لايهم أحدهم بالدفاع عن إحداهن، استشاطت عيناه وامتقعت بشرته، بينما تمسح عيناى المكان سمعت عويل أمي، فأشرت على أبي إلى المكان الذي خرج منه الصوت:

- أمي هناك

هرعنا إلى الردهة التي أرشدت أبي إليها فإذ بأمي بين مخالب كلب من كلاب صدام يغتصبها وآخر يقيدها، ألقى أبي بأخي بين يدي وحاول أن ينقذها ولكن أتاه آخر من خلفه فصفعه وأمره بالمشاهدة دون تذمر وهدده بقتلنا جميعا، أو تركنا لنفر ونحكى ما رأينا .. تعلمت

يومها أن اغتصاب الأرض واغتصاب النساء سواء، وأن المغتصِب لابد أن يفزع الرجال باغتصاب النساء كي يفروا ويتركوا له الأرض.

انخرط أبو عمر في بكاء وكأنه الطفل ذو العشر سنوات يتطلع إلى مشهد الاغتصاب وكأنه يتكرر أمامه. ربتَ على كتفه محاولا تهدئة روعه، فاستجاب سريعا وكأنه أفاق من شروده على وجود هيثم وكأنه كان يحكى لنفسه قصة يعيد تلاوتها كي لا ينساها، ولم يفطن لوجوده وسماعه لما حكى، ثم مسح دموعه وانشغل بعمله على جهازه وكأن شيئا لم يكن، كان أمره غريبا بالنسبة لهيثم، ولكنه الآن علم كيف لذاك الطفل أن يكون هذا الشرس.

*****

بعد يوم شاق من العمل ومتابعة أحوال الدولة مع الأمير واطلاعه على ما أنجزناه أنا وأبو عمر في عملنا، ذهبت إلى البيت التماسا للراحة ولمطالعة وجه بشوش كوجه جلبهار، بعيدا عن الوجوه العابسة التي تغمر عينى طيلة اليوم، دخلت فوجدتها بكامل بهائها متزينة متعطرة، لم يخفَ علي ما أرادت من تقرب ولكننى كنت أخبئ لها أمرا، قبلت جبينها وذهبت لأغتسل وأبدل ثيابى حتى تقوم بتحضير الطعام.

كانت تبحث على الإنترنت عن الأكلات المصرية، وتفاجئني بها وكانت تطهوها بمهارة لا تقل عن صنعها للاكلات الكردية، عندما رأيت طبق الملوخية تذكرت أمي وهشام وحديثنا وهذرنا على المائدة، انتفض قلبي يقرع قضبان صدرى بعنف الى على هجرهم قائلا: (كيف تستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير) كيف تترك حضن أمك وأخيك إلى هذا الجحيم المقيم.

سرعان ما نفضت عن رأسى هواجسي وتبسمت لجلبهار مادحا صنعها:

- اممم ما هذه الروائح الجميلة؟! سلمت يداك.

هللت كطفلة أثنى أبوها على فعل بسيط فعلته فجعل منه عظيما.

- حقا اعجبتك الرائحة؟
- طبعا وسترين الآن إعجاب معدتى عندما أجهِزُ على الطعام وأقضم أصابعى من لذته.

علمتها كيف تأكل الملوخية المصرية وكنت أتمنى أن يكون ضمن الطعام (رغيف بلدي) لكي أعلمها كيف تصنع من اللقمة (ودن قطة) لتلتقط بها الملوخية وتتذوقها بنكهتها المصرية الخالصة.

أنهينا طعامنا وقمت لاحضر الشاي الأخضر، في هذه الأثناء استغلت جلبهار الوقت في تنظيف الأطباق.

خرجنا معا من المطبخ أحمل طبق الشاي وهي تحمل طبقا من الحلوى الكردية تسمى كيك الأكراد.
قالت بابتسامتها الساحرة وهى تقدم لى الكبك:

- الغذاء كان مصريا أما الحلوى فلابد أن تكون كردية.

تبسمت لقولها ورحبت بالطبق قائلا:

- يا أهلا بالحلوى الكردى ..

قضمت قطعة من الكيك فوجدت طعمها طيبا فابتلعت ما تبقى وأخذت قطعة أخرى وأخرى سائلا جلبهار عن مكوناتها فقالت:

- الكيك عبارة عن بيض وقرفة وسكر وطحين مع الزيت النباتي والحليب مع مواد رافعة وكريمة كاكاو لتغطية الوجه بعد التسوية ثم تغمس في جوز الهند.
- هو لا يختلف عن الكيك المصرى إلا في شكله فقط ..

اعطتنى في فمى قطعة أخرى فقضمت أصابعها وقلت لها إننى لم أفرق بينها وبين الحلوى، صرخت ثم انفجرنا في الضحك.
قلت بعصبية مصطنعة:

- أما آن لشهرزاد أن تنهي حكايتها أم أننى لابد أن أستدعي مسرورا كي تخاف وتكمل قصة "ذو الكف الذهبية"، لأصل إلى سر جلبهار.

تصنعت بدورها الخوف وقالت:

- أمر مولاى بلا مسرور
- أكملى حكاية جلبهار وأميرها ذو الكف الذهبية.

اتخذت جلبهار وضع الحكاءة وأكملت ما بدأته من أسطورتها الكردية.

- قرر(الخان) السفر للهرب من الظلم واضطهاد السلطان العثماني .. وسكن في بقعة من أرض تشرف على بحيرة (أورمية) وضرب الخيام وعاش سعيداً بعيداً عن ظلم وجور السلاطين العثمانيين.

وفي هذا هناك شعر فولكلوري يحكي القصة.

ثم استرسلت في قراءة الشعر بالكوردية، وعندما انتهت قال هيثم مازحا:

- تمام جدا .. والله ما أنا فاهم ولا كلمة.

فبدأت تترجم له المعنى بالعربية:

- كان السلطان العثماني هو صاحب الجبال الذي يملك كل شيء، وذات يوم جاء فرمان من اسطنبول، وذاع أمره بين الكرد، كان فرمان السلطان، فرمانا أسود، يقضي بأن يقبض على(خان) ويزج به في السجن، فما بقي كردي مخالفاً من الجلاليين (كانت هذه كنيتهم)، لا يريد أن يستسلم عن طيب خاطر ساء مصيره، وإذا ما أوقدت قرية كردية شمعة ... احرقت في النار،

وغدت القرية دخانا وفحماً، اجتمع ذوو اللحى البيض وفكروا ملياً .. وقضوا إن ذهب(خان) إلى السلطان، قيدوه بالسلاسل والأغلال، وقتلوه شر قتله .. وإن بقي ها .. هنا .. دمرت القرية برصاص المدافع.

تحدث زعيم الحي:

- يابني انهض وشد الرحال من هنا، فإن الدنيا واسعة، ملأى بالبلدان، إن المظالم لم تعد تطاق هنا.

هذه الأرض الذي استوطن فيها كانت تعود إلى (الشاه) ولما سمع الشاه بأن في أطراف بحيرة (أورمية) أناسًا غرباء مهاجرين ذهب إليهم متنكراً بزي تاجر، وكرجل ثري من التجار، وعندما رأى من بعيد خيمة (خان) أظلمت الدنيا في عينيه وأمطر وجهه سمًا، نهض وركب حصانه، ومضى ليعلم من هو صاحب هذه الخيمة وعندما وصل استقبله (خان) بكل ترحاب وطلب منه الدخول إلى الخيمة، وسرد له القصة وكيف هرب من ظلم العثمانيين..

ثم عادت جلبهار لقراءة الشعر الكردي وكأنها تقرؤه من ديوان محفور في تلافيف ذاكرتها:

هربت من ظلم الأتراك.

إني كردي .. كردي مضطهد.

واستقر بي المطاف اخيراً هنا في هذه الأرجاء.
وكأنها شهرزاد تحكي لأميرها، نامت جلبهار ودموعها تفر من عينيها الناعستين، فحملتها كطفلة غلبها تعب اللعب فنامت في موضعها، وضعتها في فراشها وأحكمت الغطاء ووقفت أتأمل جمالها الهادئ، وأتذكر نهير، التى بعد أن كانت حبيبتي التى أتمناها صارت آخر امرأة على وجه الأرض يمكننى أن أتزوجها، والتى كانت سببا في أن ألقي بنفسى في هذا الأتون الملتهب بعد أن قررت اعتزال الفن والناس أجمعين، وكان يومها لقائي بأحمد فاضل بعد غياب طال لسنوات بعد أن أصبح داعية وهجر حينا بشبرا، ذهبت إليه وأنا تائه أريد الهداية لأننى أحسست أن بعدها الدنيا كلها لا تسوى جناح بعوضة، أردت أن أنتحر، ولكن الانتحار كفر، لكن الجهاد في سبيل الله حلال، قررت أن أجاهد وكان أحمد هو سبيلى الوحيد للجهاد، كنت مشهورا وكانت شهرتى سببا في أن أكون ذا مكانة في دولة الإسلام الجديدة، فخيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام كما علمنى أحمد، ولأن شهرتى ستكون دافعا لأن يقتدى بي شباب الأمة في فعل الخيرات، كما كانوا يقتدون بي في المنكر كالغناء وما يتبعه من سهر ولهو.
كان مالى المحرم لابد من تطهيره، فكان المطعم مطهرا لمالى، وكانت تلك فتواه لي كي أنقى المال من الحرام الذى اكتسبته منه، جزء افتتحت به عملا حلالا أرزق

منه، أما باقى أموالى فقد تركتها في البنك ولم أكن أنوى أخذها إلا للتبرع بها لجلب اسلحة لقتال المشركين والكفار، لكننى بعد أن جئت إلى هنا ورأيت ما رأيت من انتهاك لشريعة الاسلام وقتل الأنفس التى حرم الله إلا بالحق، ولم أجد أي حق في قتل رجل أبى أن يسلم، فلا إكراه في الدين، وكان ممو أحد الأمثلة على أن الإكراه في الدين لا يأتى بمسلم حقيقى، كان ممو أحد سماسرة التهريب لست أعرف هل كان بمعرفة الأمير أم أنه كان يفعل ذلك بدون علم أحد؟ عرفت ذلك بعد أن عشت مع جلبهار في بيوت الرقة، ولكننى أخفيت الأمر وكأننى لم أعلم عنه شيئا، أموال طائلة يأخذها ممو من الذين يريدون الهرب، تحول، البعض منهم يتم عملية الهرب بنجاح والكثير منهم يقبض عليه في الطريق، ربما كان ممو هو المبلغ عن هروبهم، أو ربما يكون للأمير عين على ممو دون أن يعلم، لم أسبر أغوار الحكاية ولكننى لقربي من ممو أسررت في نفسى أمرا.

*****

ذات ليلة بعد أثناء قراءتى على الهاتف في كتاب الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية للشيخ سليمان بن عبد الوهاب النجدى وهو أخو محمد بن عبد الوهاب زعيم الوهابية، بعد أن قمت بتحميل بعض الكتب التي ترد على الفكر السلفى الوهابي، وكانت أهم الكتب هي

ما كتبه أخوه وكتاب الرد على محمد بن عبد الوهاب لأستاذه وشيخه محمد بن سلمان الكردى الشافعي.

أحضرت لى جلبهار بعض الحلوى الكردية التي صنعتها بيديها، كانت بطارية هاتفى على وشك النفاد، فمددت يدى لأضعه على الشاحن فتناولت جلبهار الشاحن وأخفته خلف ظهرها كي لا أشحن الهاتف وأجلس معها نتحدث، حاولت تخليصه من يدها إلا أنها تمسكت به جيدا، فحوطتها بذراعي حتى أتمكن من الإمساك بها فلا تراوغني، اقتربت منها وشممت عطرها فأثار في شغف ثم أمسكتها وقبلتها وسقط الشاحن منها، فأفقت من ولهى وتذكرت وعدى لها، تركتها واعتذرت عما حدث، إلا أني لم أرَ على وجهها أثرا للغضب مما فعلت، على العكس رأيت سعادة مشوبة بحمرة وجنتيها، ولكنى أنا من تمنيت ألا ألمسها إلا زوجة لى ولكن ليس هنا.

****

لم يعد هيثم إلى نفسه القديمة بل ولدت له نفس جديدة، أقوى وأعلم من تذل التي عاش بها، أثرتها وأثقلتها تجربة انضمامه إلى أولئك الوحوش، عرف الحق وعرف من يتلاعبون ليبدلوه، عرف كيف يتشدقون بالعدالة وهم أبعد الناس عنها، وأنهم يعملون بمبدأ أينما تكون مصلحتهم فثم شرع الله، يهيئون

لتابعيهم أنهم فقط أصحاب الكلمة وأنهم يتكلمون بشرع الله وفى الحقيقة لا يتكلمون إلا بما تهوى أنفسهم، طاف حارات المدينة وأهلها نيام، وحراسها في غفلة، ولسانه يكاد لا يستقر في فمه، يلهث كالملهوف، ولا تستقر يده إلى جنبه، وجد بيتا من البيوت التي هجرها أهلها خوفا من هؤلاءِ الوحوش، ورأى أنه من الأفضل المكوث في ذلك البيت أياما، ريثما يدبر خطة أخرى للخروج منه، فلن ينجو هو وهي إلا بخطة تلو خطة ومرحلة للهروب إثر مرحلة، أما الهروب مرة واحدة فهو كفيل. بأن يقتلهم الإثنين برصاصة واحدة من بندقية أي من غربان الليل المنتشرين هنا وهناك، اما أن يتنقل بها زحفا صامتا خفيا لا يلتفت إليه هؤلاء الخفافيش، فهو الحل الأمثل، والأقل خطورة.

دخلا البيت واخذا شهيق الحرية، وأطلقا ضحكات الانتصار وإذ بالباب ويأخذانهما إلى ساحة القصاص، ويحكم عليهما بقطع رقبة كل منهما بالسيف.

****

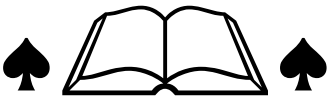

-١٥-

ذهبت إلى خلوتى بالجبل التي لا يعرفها إلا محمود (ممو) جلست أفكر فيما قررت أن أفعله ولم أخبر به أحدا، كنت أبلغت ممو أن يلحقنى إلى هناك لأننى أريده في أمر، لم يتاخر على، جاءنى ومعه نوع السجائر الذى أفضله ويقوم هو بجلبه تهريبا بدون معرفة الأمير، ناولنى السجائر وجلس إلى جوارى ممددا ساق وحاضنا الأخرى على صدره ثم شرد وطال شروده على غير عادته فهو ثرثار مهرج، يغتنم دائما فرصة وجوده معي كي يكون على طبيعته المرحة.

سألته عن سبب شروده، نظر إلى قائلا:

- هل تعرفي لماذا أسلمت؟

التفت إليه نافثا دخان السيجارة بعد أن حبسته لبرهة في صدرى.

- لماذا؟
- لأننى أعرف قدر نفسى كما تقولون، جسدى المريض رغم ضخامته لا يقوى على التعذيب، وإن قتلت فسوف تستباح زوجتى، هي حيلة الفأر الذى وقف أمام اسد لو خطا نحوه خطوة سيقتله

ظلـه، فأنـا مـريض بـداء القلـب، لا تتعجـب أننـى أتكلـم معـك بهـذا الوضـوح، فانـا لا أخـاف منـك، أنت لست منهم وأنا متأكد.

ألقيت رأسى للخلف نافثا بعض أوجاعى مع الدخان.

- أتعلـم يـا ممـو أنـك بهـذا التصـريح وفـرت علـى كثيـرا مـن الكـلام الـذى كنـت أرتبـه فـي رأسـى لأخبرك بأننى لست منهم.

ضحكنا والتقى كفانـا كمـا علمـت ممـو عنـدما نتوافق فـي رأي.

سـحبت نفسـنا أخيـرا مـن السـيجارة ثـم ردمـت فلترها في الرمل، تلقاه ممو ووضـعه فـي جيبـه ليتخلص منه بوسيلة لا تبدى له أثرا كما تعود، فهو حريص جدا ودائما يتعامل بمنتهى الحذر، يتوقع دائما أن هناك من يتابعه فلا يترك ثغرة ينفذ منها من يتجسس عليه ولا يترك أثرا لأي فعل يمكنه استغلاله ضده.

نظرت إلى السماء قائلا:

- أريد العودة.
- هيا بنا نعود.
- لا؛ ليس كمـا فهمـت، أنـا أريـد العـودة لمصـر .. الهرب.

*****

لم يكن قرارى بالهرب مفاجأة لممو، قال لى إنه كان يتوقع طلبى وأنه على استعداد لمساعدتى، في أي وقت أريد التنفيذ، وفاجأته أيضا أنى أعرف أنه هو الجنى الذى يخفى الهاربين.

حاول ممو تقديم مساعدته بلا أي مقابل ولكننى أبيت إلا أن أمنحه ضعف ما يريد، كنت أعلم مدى حبه لى ولكننى لا أثق في النفوس البشرية، ولا آمن تقلباتها، فآثرت أن أمنحه مالا يقتل لديه أية فكرة لإبلاغ الأمير إن كان هو من يبلغ عن الهاربين، من ناحية، ومن ناحية أخرى تجعله أحرص منى على تأمين الهروب، ومنحته أيضا سلاحى فلم يمكننى بيعه لأن بيعه سوف يكشف خطة هروبي، لأن جيش الدولة يراقب تجار السلاح لأن الهارب أول ما يفكر فيه هو بيع السلاح لتجميع مبلغ التهريب، كان معي الكلاش ذو النجمة المختومة على حافته، أثمن أنواع الاسلحة، ولاستغلال التجار كان الواحد منهم يباع بألف دولار وسعره الحقيقى يزيد عن الألف وخمسمائة دولار ..

تواعدنا على أن نلتقى هنا أنا وجلبهار حليق الذقن للحماية من أن يتعرف علي أحد جنود الحدود، مع ممو وأنه يرتب كل شيء، وما على إلا أن أنفذ خطته

خطوة خطوة بلا تساؤلات، كان راتبي من جيش الدولة أربعمائة دولار.

كانت جلبهار من أهم أسباب تفكيرى في الهرب ولكنها لم تكن الوحيدة، هذا البيت الذى سكنته معها كان سببا مهما، لم أشعر بألفة بينى وبينه، لم أشعر أبدا أنه سكن، صور أصحاب البيت على حائط المنزل كانت أشباحا تطاردنى، رفعتهم من فوق الجدران ووضعتهم في الأدراج، مع مذكراتهم التي قرأتها فقتلتنى صفحات السعادة وعذبتنى صفحات الألم، ورغم ذلك لم تغادرني ملامحهم في منامي، ابتساماتهم لم تكن إلا عويلا يصدح في ردهات حلمي، حتى بصمات الأكف الصغيرة على التي كانت تملأ جنبات البيت، وما رسمت ولونت على الجدران، كلهم كانوا يطاردون منامي، كانت تحاصر صحوى ومنامى تخبرني بأنها يوما ما سلتفظني خارجها ولو بعد حين لأنها تنتظر عودة أصحابها، منحوني بيتا ليس بيتى، واسما غير اسمى فكنوني بأبي منذر، وكذلك فعلوا بأسماء الشوارع والمدن، كان هذا تقليدا ابتدعه المجاهدون الأفغان وسار على دربهم أصحاب الدولة، ولم يفعلها هؤلاء فقط بل فعلها كل مغتصب يحتل بلدا فيحاول طمس ملامحها وصبغ الدولة المغتصبة، بصبغة المحتل.

كان أبو عمر لا يريد أن يتمم لى قصته التي بدأها ولم ينهِها، وكان ذلك يزيد شغفى لمعرفة ما حدث، رغم غلظته إلا أننى كنت أعرف مفاتحه التي تجعله لينا، كان إياد دائما يخبرني أن الخيرية لم تُمحَ من قلب أى إنسان، أعطيتُ"أبو عمر" ساعتي الروليكس مقابل مائة دولار فقط وكان سعرها أكثر بكثير من هذا الثمن، كان دائما يلتهمها بعينيه، وكنت ألاحظ ذلك، لم أهتم أبدا بماركة الساعات أو الملابس حتى عندما كنت نجما مشهورا وكان مصمم الأزياء الخاص بي هو من يختار لى ماركات الملابس والساعات وكل ما أرتديه، كانت قصة حاتم وهذا اسمه الذى أخبرني أنه كان اسمه قبل الانضمام لجيش الدولة، التمعت عيناه عندما منحته ساعتي، وشكرني على هديتى، وعرض على ان يقوم بعملى في هذا اليوم لأذهب وأستريح في بيتى بجوار سبيتى ولكن لم تكن هذه المقايضة هي ما أرجوه، كنت أخطط لاستبدال ساعتى بتلك الساعات التي عاشها في هجوم العراقيين على الكويت، أضجعت على الأريكة، وقلت له إننى اريد سماع باقى قصته، لم يكن ليرفض بعد ما نال ما منحته إياه، ولكنه قال بألم:

- أنت تعرف أن تلك القصة تؤلمنى ولكني قد رويتها لك لتعلم أنه مهما تعذب هؤلاء الخنازير لا يمكن أن يساوى ألمهم ما عانيت أنا وأمي وأبي.

- بعدما تركنا الجنود العراقيين لنخرج من العراق بعد ما أصاب أمي من اغتصاب، أخذنا أبي إلى طريق الهروب، أمى الطيبة العظيمة المحترمة سارت مع أبي ورأسها منخفض لا تكاد ترفع عينيها في عينيه بعد ما رآه، وكان أبي أيضا لا يستطيع أن يحدثها إلا وعيناه في اتجاه بعيد عن مرمى نظرها، لم تغتصب أمى فقط ولكن اغتصبت رجولة أبي معها، عندما وقف لا يمكنه الدفاع عنها بعدما هددوه بقتلى وأخي وقتلنا جميعا، ونحن في الطريق إلى مصر ناول أبي أخي مؤمن لأمي كي ترضعه، أرضعته قهرا سال في دمها فتشبع به لبنها، مات أخي الصغير ونحن نسير في الصحراء، لم تبك أمى ولا أبي، ربما كان الوجع أكبر من البكاء، ربما فرحوا أن أحد الروابط التي تربطهم معا قد منحهم القدر الخلاص منه، ولكن بقيت أنا قيد قد معصميهما، رأيتهما طيلة عمرهما لا يلتقيان أبدا إلا دقائق معدودة، التزم أبي حجرة مكتبه ينام فيها ويقضى كل وقته فيها، وأمي أيضا، في حجرتها لا تبرحها إلا في عدم وجوده، وأنا ما كان أحدهم يتحدث معى إلا نادرا لم يجمعنا معا حديث عائلى أو طاولة طعام، بقينا على هذا الحال

أعواما حتى بدأ أبي في مراحل مرض الزهايمر الذى كان سببه حالته النفسية الصعبة التي عاش سجينها ما يقرب من عشرين عاما فنسي فرقتهما بل ونسيها أيضا وأصبح يناديها بأمي، كانت تنتابه حالات غضب وتشنجات نستمع له فيها يذكر ما حدث، وكأن ذاكرته عصى عليها نسيانه، ولكني لم أنسَ وأقسمت أن أثأر لهما.

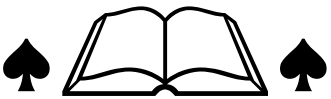

-١٦-

سمعت جلبهار صوت هيثم يصرخ ويستنجد، وينادیها، بعد أن قطعت رأسيهما بالسيف، فقامت إليه مسرعة، فوجدته غارقا في عرقه محموما يهذى في نومه.

سقته شربة ماء فطلب منها أن تجلس بجواره تستكمل حكايتها حتى يتسلل إليه النوم الهادىء من رخيم صوتها.

- يروى أن أمير خان بعد أن والى الشاة وكانا في جلسة سمر احترق كف الأمير وهو يناوله جمرة نار ليشعل بها غليونه فكافأه الشاه بكيس من الذهب وضعه في كف الأمير، و روايات أخرى تقول: إنه قد ذهب إلى بلاط الشاه أنه عمل سائسا" لخيول الشاه وذات مرة هاجمته زمرة من قطاع الطرق فدافع عن نفسه دفاع الأبطال، واستطاع إنقاذ الخيول من السرقة، وقتل معظم أفراد الزمرة وولى الباقون الأدبار، ولكن الأمير فقد إحدى يديه في المعركة فأمر الشاه بصب يد من الذهب له ثم طلب الأمير من الشاه أن يمنحه قطعة أرض يبني عليها دورا لنفسه ولأبناء

عشيرته، فأستجاب الشاه لطلبه، ولكن الأمير شيد بدلا من ذلك قلعة حصينة تضم دورا له وأتباعه وأنه خطط لهذه القلعة بعناية فائقة حيث كانت أسوار القلعة متينة ولها أبواب حديدية منيعة لا تؤثر فيها حتى المدافع الثقيلة، وكان داخل القلعة سراديب وانفاق سرية، وأحواض لمياه الشرب، وخزانات للمواد الغذائية، والأهم من ذلك أنه كانت القلعة تزود بالمياه من نبع سري وتجري مياهه في جدول مغطى بالصخور، ولم يكن يعلم بسر النبع سوى عدد قليل من حاشية الأمير من بينهم أحدالعمال الذين قاموا بشق الجدول هو محمود المركاني، ويقال إن هذا النبع كان موجودا من قبل الاسلام ومن عهد الساسانيين (الأكاسرة) وفي ذات المكان كانت القلعة موجودة، ويقال لها (دمدم) إلا أن الأحداث التي مرت بها أثرت عليها وهدمتها. تقع قلعة دمدم في شمال غرب كردستان إيران وعلى حدودها مع تركيا.– شيد الامير قلعة حصينة بهذا الاسم لحماية نفسه وأبناء عشيرته وإمارته من شرور الأعداء والمعركة الدموية التي دارت بين الأمير وأبناء عشيرته من جهة وبين الشاه عباس الصفوي وجيشه من جهة أخرى.

تلك القلعة كانت مبنية على قمة جبل عال وبقطعة من الحجر طويل الحجم ضيق تشبه ظهر الثور، ويقع على شمالها وجنوبها واد عميق ومن الأسفل الى الأعلى، ولم تكن بحاجة إلى سور ولم يجعلوا لها سورا، أما بالنسبة إلى الشرق المتجه نحو الجبل، وبمساحة الجبل قد أقاموا حولها سورا عاليا وفوقه برج عال مع باب للبرج، والجهة الشرقية منها ضيقة متينة السور وباب نحو الجنوب، ومن الباب وحتى الطريق ممر ضيق إن سمح لمرور خيال واحد، طريق صخري صعب والطريق بالنسبة إلى الخندق من الجهة الشرقية إلى الغربية منه إن لم تمر بالخندق لا يمكن الوصول، وأطرافها مسورة بالأحجار الصلبة صعب المرور منها، وفيها وعليها برج عال جدا حتى وإن قام حوله حصار.

أما بالنسبة الى تأمين الماء فكان هناك حوض كبير لتجمع الماء، وفي القسم الشمالي وسط واد عميق قرب القلعة عين ماء، لكن ماءها قليل وقام أمير خان بفتح جدول لها وفتح طريق للجدول ليصب ماؤه في الحوض، ويجري فتحه في الليل وحتى الصباح لملء الحوض مع بناء قبة على طريق الحوض وسموها (سولق) للحفاظ على الحوض، وفي القسم الجنوبي منها أسسوا مخزناً لجمع الثلج شتاء للاستفادة من جمعه في فصل الصيف الحار، في ذوبانه وهذا الحوض لجمع الثلج بنيت فوقه قبة وضعت تحت الحراسة، وهذه القلعة

تحتوي على خمس قلاع أخرى إحداها أصل القلعة، والثانية القلعة السفلى، وواحدة (سولق) وواحدة (بوزلق) وهذه القلاع الخمس عاليات جدا لا مجال للوصول إليها..

مجتمع القلعة المتماسك، والملتف حول الأمير ظل ينعم بالحرية والرخاء بفضل حكمة الأمير وإجراءاته المدروسة، ومهارته في إدارة شؤون أمارته الصغيرة وكان زعيم (خان) منطقة (مه ركة) وهي منطقة قريبة من القلعة يخشى سلطة الأمير الكردي القوية، وصيته ومناعة قلعته.

وكان الكرد يريدون العيش باطمئنان وحياة حرة سعيدة.

وحين تزوج الأمير الكردي من فتاة جميلة، استشاط الخان غضبا" لانه أراد الفتاة لنفسه وليس لغريمه فأخذ الخان يحيك الدسائس والمكائد ضد الأمير الكردي، ويؤلب الشاه ضده، وفي هذه الاثناء هاجر عشرة آلاف من كرد عشيرة جلالي من منطقة كردستان تركيا هرباً من بطش وظلم واضطهاد السلطات العثمانية إبان حكم السلطان العثماني أحمد الأول الملقب بصاحب البخت المحظوظ، أراد شاه عباس الصفوي إسكان ألف عائلة من عشيرة الجلاليين في منطقة عشيرة برادوست، ولكن خان ذا الكف الذهبية رفض ذلك.

فكان ذلك فرصة عظيمة للخان فقال الخان للشاه:

- إن الأمير الكردي قد شيد قلعة عظيمة ومنيعة وأعلن الاستقلال ولا يعترف بسلطة الشاه.

فجن جنون الشاه وأمر بهدم القلعة على رءوس سكانها.

وعادت جلبهار تحكي وتتلو الأشعار:

- صرخ الشاه واخذته الرجفة من الغضب، فقال اهدموا القلعة على رءوس ساكنيها، ولاتدعوا منها حجراً على حجر. واحرثوا مكانها،وازرعوها اعشاباً، وكان يدوّي صهيل الخيل من كل ناحية وصوب،وترجع صداه الفجاج والكهوف.

و أمر شاه ايران شاه عباس الصفوي قواته بتهديم القلعة على رءوس ساكنيها.

وأرسل جيشا" جرارا" لهذا الغرض بقيادة زعيم (خان) مه ركه، ولكن محاولات جيش الشاه باءت بالفشل الذريع حيث لم تكن لأسلحة الجيش الفارسي وبضمنها المدافع تأثير على القلعة، فقرر الشاه قيادة الهجوم على القلعة بنفسه، وحاصر القلعة لعدة أشهر، ولكن حظه لم يكن أفضل من حظوظ قواده، واستمر حصار القلعة طويلا" لكن الحياة في القلعة كانت منظمة والروح المعنوية لسكانها عالية.

كانت جلبهار قد أنجبت للأمير ولدين، وكان محمود المركاني يعمل "سائسا لخيول الأمير لينعم برؤية الحسناء جلبهار فقد كان السائس مغرما" بها من بعيد ويطيل التفكير فيها دون جدوى، وطرأت في ذهنه فكرة جهنمية، وهي إفشاء سر الجدول الذي يزود القلعة بالمياه إلى الشاه، إذ ربما يجازيه الشاه فيهبه جلبهار، وتمكن محمود المركاني بطريقة خادعة من اللجوء إلى الشاه، و إفشاء سر الجدول، وجاء الشاه، وجلس قرب النبع مسرورا" ونهل من مائه بكأس من الذهب وشربه ثم نادى ذلك الخائن وسأله:

- ما الذي دفعك إلى الخيانة؟
- أريد أن أخدم شاهي وأن أحقق حلمي في الزواج من جلبهار.

لم ينم هيثم إلا وأميرته الكردية بجانبه تدفىء فراشه، ويسكن رأسها الصغير بجوار قلبه.

*****

ليتني أعرف سر ذلك الفجر، كيف يحمل خيطه الأبيض صفاء الروح جنبا إلى جنب مع ما يحمله خيطه الأسود من رهبة، ورجفة لشغاف القلب، ووجل ترتعد له ذراتي، كيف أن سماءه الصافية في ذات اللحظة يتعانق القمر والشمس على إهابها، ولا يبغيان، كيف لرطوبة نسيمة أن تسعِّر نيران الحنين في روحي، و أغاريد

الطيور في شقشقاته تثير أعاصير الحزن في أعماقي، وذلك الندى الذي يتساقط على جسد الورد أحسه دمعات تساقطت من عينيّ كانت تحملها غشاوة وجع فتناثرت ضبابا تلقفه صدر الوردة، ليربت على أوجاعه، ما لهذا الفجر يحمل كل هذه المتناقضات في جوفه، يثير فيّ الفرح والحزن، يسجد فيه قلبي آمنًا، وترتعد ذراتي خشية، في طفولتي عندما كان يوقظني والدي للصلاة، كنت أقوم فأصلي، و أعود بسرعة إلى فِراشي أتخفى تحت الغطاء، مم أتخفى؟

لست أدري و لم أدرك وقتها، ولا حتى الآن سبب تلك الخشية، وعندما كبر عمر دراستي أصبح الفجر زميلا .. يصاحب كتبي و أوراقي .. ثم توطدت علاقتنا .. فأصبحنا شركاء البوح عندما أصبحت كاتبًا، كم من مرة احتسينا معًا قهوتنا .. و ألهمني الفكرة، وسطرت بأناملة الرطبة حلو كتاباتي، أما ذاك الفجر، فلست أدري ما حدث، اتخذت علاقتنا طورًا جديدًا من أطوارها ...

أعددت له ما يحب من طقوس للكتابة بعدما صليت، ولكنه أطاح بكل ما أعددت بيد التمرد، وشق عصا الوصال .. فلم يمنحني الفكرة التي ارتجيته في صلاتى أن يقف بجانبى فى ولادتها هذا الصباح، فلم يذعن، ويمنحها لى رغم استجدائي لها .. بعدما كان طواعية يهدينيها ..

هاتفنى هيثم وأخبرني أنه تمكن من الهرب وان ملجأه سيكون بيتى، كان هذا الاتصال بمثابة انفراجة لفكرتى التي أبحث عنها، ستكون قصتنا هي روايتى أو بالأحرى فيلمي الجديد، وسيكون هيثم هو بطلها، سيعود به إلى ذاته بعد أن غاب عنها كل هذه السنوات، سنكشف معا زيف من بدلوا ديننا وسودوا حياتنا.

أعرف أن الأمر فى غاية الصعوبة، وأن الكثير من الحروب سوف تُشن على روايتى إن هى خرجت للنور من جانب كل قوى الظلام، وربما من قوى النور أيضا، فالكل سيتألم مما سأقول، وما سوف أكشف عنه النقاب، والستر فى هذه الرواية.

جلست في الشرفة، أناجي الضياء وأستجديه أن يمنح الإلهام لقلمي.

*****

استيقظت جلبهار لتجد نفسها بجواره يحتضنها بحنو يدفىء جسدها العارى، انتفضت باكية، فما كانت تظن أن تترك نفسها راضية لرجل غير كردى، سمع هيثم صوت بكاءها المكتوم وفطن لسببه أخذها بين ذراعيه فسكن فزعها بين ضلوعه ابتسم قائلا:

- أنت زوجتى وأشهد الله على ذلك وسأشهد الجميع على ذلك.
- هل ستكذب وتقول أنى أسلمت؟

- لا لأننا سنعقد قراننا في مكان آخر.

فاجأته بقرارها قبول الاسلام قائلة:

- إذا سنتزوج كامرأة مسلمة برجل مسلم.

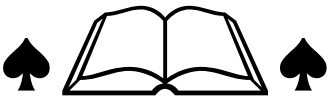

-١٧-

- عندما أخبر محمود المركاني الشاه بسبب خيانته رمقه الشاه بنظرة ازدراء وأمر بقتله سحلا وذلك بربطه بذيل حصيان جامح كما أمر بذبح قطيع من الماشية وإراقة دمائها في الجدول، لتتخذ طريقها إلى القلعة، واضطرب سكان القلعة حين شاهدوا الدم يجري في الجدول عوضا عن الماء، ولكن الأمير الكردي طمأنهم بأن الأحواض والجرار مليئة بالماء، وأن موسم الأمطار قريب؛ حيث تمتلئ الأحواض بالمياه من جديد لحين وصول النجدات إليهم من أشقائهم الكرد في الإمارات الكردية الأخرى، ولكن طال أمد الحصار ولم تصل النجدات وأخذ الماء ينضب وقال والد الأمير وهو يخاطب رجال القرية:
- خير لنا أن نموت في ساحة الوغي من أن يحتل العدو القلعة، ويجدنا نحتضر عطشا، علينا أن ندافع عن شرفنا وكرامتنا قبل أن ينتهكها أزلام الشاه !

فهب شباب القلعة وتسلحوا بشتى أنواع الأسلحة، وبعد أن تفقد الأمير تحصينات القلعة،وجاهزية جنوده ذهب ليودع زوجته.

قال الأمير:

- جميلتى ولدتِ لتعيشِي حرة فوق الجبال الشم، ووَلدتِ ولدين كل منهما كالليث الهصور، جِدى من أجل تربيتهما تجدي فيهما سعادتكِ، وحين تكون القضية قضية شرف فإننى أعرف ماذا ستفعلين، لا تنسي هذا اليوم.

نزلت دمعتان من مقلتي جلبهار وبرقتا كالبرق وانسابتا على خديها الأسيلين وقالت:

- اذهب يا ليثى الهصور، وأنت مفعم بالحب، ولن يغلب رجل الحب والتضحية،ولتكن جلبهار فداء لك سأربى أولادك وأرضعهم لبانة الرجولة و الشجاعة، استودعك الله، وأقسم بسيفك أن أذيع جدارتك و شهرتك وأضحي بحياتي من أجلك.

أما بالنسبة للكرد فعندما بدأت الحرب والهجوم على قلعتهم فقد دقوا طبول النفير العام وحمل الشباب والشيوخ السلاح، وخطب (خان ذو الكف الذهبية) بين الكرد حيث قال لهم .. هل ترضون أن تموتوا موت الجبناء .. كيف ترضون لأنفسكم أن يداهمكم العدو في عقر داركم .. وأنتم لاتحركون ساكنا .. كيف ترضون أن يداهمكم العدو وأنتم لاتقاتلون .. كيف ترضون أن يحتل

العدو القلعة؟ هل ترضون بأن يأتي الأعداء وترضخوا لهم وتقبلوا أيديهم وتصبحوا عبيداً لهم .. فعندما سمع الحاضرون هذا الكلام قاموا بحمل السلاح.وأما الذين لم يحصلوا على السلاح فقد هاجموا العدو بالحجارة والعِصي واشتدت الحرب وانتشرت جثث القتلى في كل مكان وتلونت الصخور والأرض بالدماء واستسلم قسم من أعدائهم وأما من بقوا سالمين من العدو فقد لاذوا بالفرار.

كانت تارة تحكي وتارة تقرأ الشعر الفولكلوري والدمع يترقرق من عينيها الخضراوين كالعشب الندي.

حمل السلاح الشيبة والشباب، فمن حامل للبنادق أو الحراب أو العصي ..

ومن حامل للفؤوس والبلطة، ومن حامل للرماح.

ومنهم من لوى القضبان، ومنهم من حمل العصي، والمطارق والغالات، ومنهم من لبس الدروع وحمل المجن فلم يبق من ساكني ذلك المكان احد بغير سلاح.

ثم أمر الأمير بإخراج النساء و الأطفال و الشيوخ من القلعة عن طريق نفق سرى يؤدى إلى الجبال القريبة.

كان الغروب قد لون قمم الجبال لتوها بالصفرة الذهبية حين فتحت بوابات القلعة، و تدفقت سيول الرجال هادرة وبوغت العدو، ونشبت معركة دموية ضارية استبسل

خلالها المقاتلون الكرد، ولكن ميزان القوى لم يكن متكافئا فقد حشد الشاه جيشا جرارا يبلغ تعداده أضعافا مضاعفة لعدد المقاتلين الكرد الذين كانوا يحاربون كالأسود تحت قيادة أميرهم البطل.

وبعد أن استشهد معظمهم، لجأ من بقي منهم على قيد الحياة إلى الجبال، ولم يتمكن العدو من أسر أي مقاتل كردي، وحين دخل جيش العدو إلى القلعة لم يجد سوى الخرائب والأنقاض، فقد فجر الكرد قلعتهم قبل أن يغادروها حيث كان الأمير الكردي قد خطط لكل شيء مسبقا، وحدد طريقة تفجير القلعة عند الضرورة، وغدت شجاعة أبطال قلعة دمدم أسطورة تتناقلها الأجيال الكردية المتعاقبة وهي صفحة مشرقة ومشرفة من تاريخ الكرد ونضالانهم وتضحياتهم السخية من أجل الحياة الحرة والكرامة الإنسانية.

أما عن نساء القلاع وبصورة خاصة نساء الأمير خان فقد شاركن، وتقول الأبيات الشعرية التي تشير إليه، وكما (من كانت بقيت هناك .. قالت يا أخي أنت فقط بقيت لي، فاهرب أنت أيضا).

وأما النساء الكرديات فيقال إنهن قتلن انفسهن حتى لا يقعن فى الأسر سبايا للشاة الصفوى.

- ألذلك قلتِ إنك مثل جلبهار .. ألازلت تفكرين في قتل نفسك؟

- قبل أن تأخذنى ولكن الآن أنا حريصة أن أحيا معك ما تبقى من عمرى.

الآن أنتهت حكاية جلبهار الأسطورة وستبدأ أسطورتي مع الحب الذى اهتديت له بعد ضلال.

****

اليوم استكملت كل التراخيص المطلوبة لتصوير فيلمى الأخير، مع استلامي لآخر تصريح من القوات المسلحة بالآلات التى سوف يتم استخدامها فى الفيلم، فقد أتانى صبري المنتج الفني، وأنا أجلس في المقهي الذى اعتدت الجلوس فيه منذ كنا نجلس ثلاثتنا أنا وهيثم وأحمد.

جلس صبري أمامي وألقى برأسه على ظهر الكرسي وكأنه يحاول إنزال تعب الأيام التى قضاها فى التنقل بين المصالح لاستخراج التصاريح من فوق أكتافه.

سألته عما انتهت إليه رحلته المكوكية:

- إلام انتهت رحلتك يا ابن بطوطة؟

نادى بصوته المنهك على النادل طالبا منه فنجان قهوة دبل وأخرج لي التصاريح ثم قال:

- أخيرا انتهت رحلة العذاب التى ما كان ابن بطوطة ليتحملها، فقد أصبحت التراخيص بعد الثورة عقدة فرق العمل فى الأفلام فى أى تصوير خارجى، أتعرف محمود عزت مخرج

الأفلام الوثائقية؟ تم القبض عليه واحتجازه ورفيق عمله ثلاثة أيام على يد أجهزة الأمن للتأكد من صحة التصاريح الأمنية الخاصة بالتصوير.

في السابق لم نكن نحتاج كل هذه التوقيعات ولا التنقل بين كل هذه الجهات.

أكمل حديثه بينما أخذت أقلب في التصاريح والأوراق:

أتعرف أنه من حق الداخلية منعنا من التصوير رغم صحة التصاريح، وهذا بند موجود فى التصريح.

بحثت في الأوراق حتى وجدت هذا البند مكتوبا_بالفعل_فيها .. ثم ألقيت بالورق فوق الطاولة صارخا:

- كيف يمنعوننا والمفترض بعد إبلاغنا لكل تلك الجهات أن نلقى الحماية فى موقع التصوير.

أتى له النادل بالقهوة فرشف منها صبري رشفة وأشار لى بأن أهدأ مطمئنا:

- بالطبع هذا لا يحدث ولا تتوقعه، فعندهم ما هو أهم منا لحمايته.

الغريب في الموضوع أن نقابتى السينمائيين، والممثلين لا تعترض على أية إجراءات يتخذها الأمن،

والمفارقة أن البعض يتخوف حتى من مجرد الحديث فى الموضوع.

- أنا استوعب جيدا أن استخراج تصاريح التصوير لفيلم سينمائى يمر بإجراءات معقدة، و من الحصول على موافقة الرقابة على السيناريو، ثم موافقات كل من نقابة السينمائيين، ونقابة المهن التمثيلية؛ ولكن ما لا أستوعبه هو أن يوقع المخرج على تعهد بألا يمس فيلمه من قريب أو بعيد أيا من قطاعات الشرطة والقضاء أو الجهات السيادية بعد هذه الرحلة الشاقة طيلة الأسبوعين الماضيين وأنا أذهب لوزارة الداخلية للحصول على تصريح تصوير لمدة خمسة عشر يوما.ثم توجهت به إلى مديرية الأمن فى المنطقة التى سنصور فيها، للحصول على موافقة أخرى بعد ثلاثة أيام من مدة التصريح، ومن بعدها توجهت إلى مأمور قسم الشرطة لأبلغه قبل التصوير بأربع وعشرين ساعة، وكان بإمكانه أن يرفض السماح بالتصوير بحجة الحالة الأمنية فى المنطقة.

ثم قال بنبرة تهكمية:

- أخشى ما أخشاه أن نفاجأ فى الأيام المقبلة ببعض النقابات مثل الأطباء، والمحامين تطلب نفس

التعهد، فهذا أصبح ليس بمستبعد فى هذه الأيام، وأن سكان حينا يعترضون على التصوير فى الشارع الذى أسكن فيه، فأنت تعرف جيدا أنني من الناس المهمين في البلد.

قالها ثم انفجر ضاحكا وامتزجت ضحكته بدموع الإرهاق الذى عاناه طيلة رحلة التصاريح.

و أخبرني بما كان يخفيه عنى وما قد عطل هذه التصاريح أكثرمن اللازم فقد اعترضت الداخلية على بعض أسماء فريق العمل، ومنها أسماء النجوم، بحجة تشابهها مع أسماء متهمين فى قضايا، وإلى أن تم الفصل فى اللبس كانت مدة التصاريح انتهت، وإنه لم يرد إخبارى بالأمر كي لا يزعجني ذلك.

كان له كل الحق فقد أزعجني ما قال حتى وبعد أن تمت الموافقة، فهل يعقل أن يتشابه اسم نجم معروف مع اسم أحد المجرمين المطلوبين ويقضي هذا بتوقف العمل حتى يتم التأكد، ألم يتأكدوا أن ذلك مجرد تشابه أسماء؟!

قلت بألم:

- حقا سنرى العجب.

أخرج مفاجأة أخرى من جعبته مبتسما قالها:

الأعجب أنه فرض علينا تواجد مندوبين من كل تلك الجهات لحضور التصوير.

صرخت من قوله:

- ماذا تقول هل سيراقبون التصوير؟!
وهل يحدث ذلك مع التليفزيون المصرى؟!
- طبعا لا؛ ولا يحدث مع القنوات وجهات الإنتاج التى يطلقون عليها مصدر ثقة.
- أليس اسمي مصدر ثقة.
- اسمك الذى يعتبر الآن علامة من علامات السينما، هو ما منحنا سهولة فى استصدار التراخيص.

ثم استطرد صبري حديثه بعد ان ارتشف رشفة من فنجان القهوة.

- ألا تعرف أن القنوات الجديدة لا يستطيعون استخراج كل هذه التراخيص ؛ لذلك يضطرون إلى التصوير دون تصاريح والاختباء من الشرطة والهرب منها كاللصوص؟!

تنهد إياد نافثا بعض همومه قائلا: هذا ما جلبه لنا الإرهاب .. ولكن الغريب أن هذا يحدث فى مصر فى الوقت الذى أعلنت فيه الأردن أن كل أراضيها مدينة إنتاج مفتوحة دون تصاريح.

عدّل صبري من جلسته:

- أنت لم تستمع لنصائح المنتج بالعمل هناك لسهولة الأمر.

- ما رغبت فى أن تحمل أرض غير أرض بلدي لقطات فيلمي التى تخصها فقد اعتبرت ذلك خيانة للأرض، كان استخراج تصاريح التصوير في تونس أيضا سهلا، وكان لابد من التصوير هناك ليكون لها نصيبها من مشاهد الفيلم التى تخصها، ولأشم رائحة دماء الشهداء الزكية على ثراها.
- إذاً سنبدأ بالتصوير هناك وأرجاء كل المشاهد الخاصة بمصر إلى آخر أيام للتصوير حيث تكون قد أنهيت مشاهد تونس كلها، لتكون مشاهد النهاية هنا على أرضنا.

ولأن فيلمى له جهات تصوير متعددة ؛ فقد مررنا بمشكلات عديدة، وكان أكبر مشاكلنا هو هيثم، الفنان التائب العائد إلى ما تاب عنه بفيلم يعد من أكبر الأفلام السينمائية التى تصور كل ثورات الربيع العربي تقريبا، والذي كان يثير شكوك جهات الأمن، لولا وجود اسمى فى الفيلم، ولولا عودته للساحة الفنية ليعطي الجميع دليلا على أنه حقا قد عاد خاليا من كل الأفكار التكفيرية التى كان يتلقاها من هؤلاء التكفيريين.

بالرغم من دراستي للإخراج، إلا أنني آثرت الكتابة، والتأليف على الاشتغال بالإخراج؛ فميولي للكلمة وجمالياتها استهواني أكثر من العمل بالإخراج؛

ولكنني كنت في تأليفي لرواياتي، أخرج عملي بطريقة المخرج المؤلِف، فقد كنت أجمع الإثنين معا ؛ مما جعل مؤلفاتي تحظى بالقبول الشديد لدى المخرجين والقراء معا، فالأول يجد متعة في تنفيذ عمل إبداعي لمؤلف يتفهم دقةعمل المخرج ولايختلف معه في طريقة إخراج العمل، و الآخر يستمتع بحياة يضيفها إلى حياته؛ فيعيش مع أبطالي حيواتهم بمتعة التعايش التام.

فكثيرون من المؤلفين الذين ليس لهم علاقة بالإخراج تحدث بينهم وبين المخرج عند تحويل رواياتهم إلى عمل سينمائي خلافات تؤثر سلبا على القصة المخرجة، عندما يبدأ المخرج العمل في فيلم، يجب أولاً أن يفسر نص السيناريو. وعملية تفسير النص هي عكس عملية كتابته، فالكاتب يطور القصة حول شخصيات وأفكار، بينما المخرج كمفسر للنص، يتخلص من القصة ليحدد تلك الشخصيات والأفكار.

وبالرغم من أن المخرج يعتبر الأب الأول للعمل الفني، إلا أنني كنت أشاركه تلك الأبوة بل وصاحب النصيب الأكبر حيث ولادة العمل على يدي منذ أول يوم، وحتى يخرج متكاملا إلى دور السينما، فقد كنت أشاركه اختيار طاقم العمل حتى الممثلين، من دون غضاضة أو تأفف، بل كان بكامل الترحيب من قِبل

زملائى المخرجين لما كنت أضيفه للعمل من وجهة نظرى كمخرج، كما أضيف إليه نكهة إحساسي كمؤلف.

فدراسة الإخراج في الأكاديميات المتخصصة ترتبط بدراسة السيناريو والحوار. كما أن المقدمين لهذه الدراسة يمرون باختبارات في التمثيل .. .. إذاً ارتباط الإخراج بالمشهدية (سيناريو) والتمثيل هو شيء مهم جدا حيث يفترض في المخرج الناجح إتقانه لمجموعة الفنون التي تخص العمل.

وبالرغم من ذلك لم أقم بإخراج عمل من أعمالي كاملا، فقط كان لي رأي ورؤية في الإخراج.

أما هذه الرواية، فهي الوحيدة التي أحببت أن أخرجها بنفسي، لست أدري ما الذي يربطني بها، وما دوافعي كي أقوم بنفسي بعمل المخرج، ما سر التصاق هذه الرواية بروحي؟!

هل هي ضالتي المنشودة، التي كنت أسير طريق الكتابة لأجدها في نهايته؟!

أم لأنني أتعامل معها كمؤلف مخرج، يعتقد أنه ليس هناك من يفهمها نصا أو رؤية كما يعرفها هو؟

هل أصبت بعدوى زملائي المؤلفين، وأعتقد الآن أن أحدا لن يفهم روايتي كما أفهمها أنا؟

أم أنني أظن نفسي أفضل مخرج يستطيع فهمها والإحساس بتفاصيل حروفها؟

هل لهذه الدرجة عشقت الخلود فيها؟

أم بحثا عن حياة أخرى غير حياة المؤلف فأتذوق كيف يعيش المخرج الذى هجرت حياته طواعية وأردت الآن العودة إليها لأحيا حياته التى لم أعِشها من قبل؟

إذاً هو ربما نهمي للحياة بأكثر من حياة .. أو ربما لسبب آخر لا تستطيع نفسي الفانية معرفته.

أما روحي الخالدة فهي تعيه تماما، بل وتدفعني إليه دفعا.

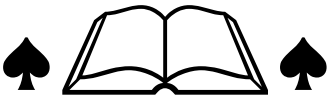

-١٨-

وحدتي ... هي أكثر الزائرين تطرق بابي كل حين، لتأخذني إلى حقيقتي، أجالسها وأسامرها، أطل من بين تجاعيدها لأرى كل ما فاتني، وأشاهد وداع من ودعوني، أبتسم في ألم وتذرف عيناي دموعها على رفات الصداقة التي أوفي لها، و تغتالني بالتجاهل، كم أنا وفية لذكرياتي معهم و كم يخذلون حنيني لهم، أتلهف شوقًا لأن تعود سويعات من سوالفنا معا، ولكنهم لا يلتفتون إلى لمحة من ذكرى تقترب من أهداب حاضرهم، مضيت وكأني لم أكن، واستوطنوا هم ماضيَّ وحاضري، وعلى مفرقيها يطل شيب أيامي الذي تمنى أن تربت عليه يد حبيب غاب، فلم يكترث بشوق ضفائري لأن تجدلها أنامل حبه، وعلى وجنتيَّ لم تزل وردة تنتظر لمسة منه تسقيها إكسير الحب فتحييها، أود أن أزور كل من يعيشون وحدتهم مثلى لأسلي، وحدتهم و أملأ فراغ المقاعد حولهم، و أنثر الحكايات لتدفئ صقيعها، ليتني أستطيع أن أهاتفهم كل دقيقة، وأقلد أصوات أحبتهم، وأرسل الزهور على أبوابهم، وأضع بطاقة باسم غائبيهم وأعتذر عن الغياب، ليت لي حيلة ... لأقتل تلك الوحدة التى تحاصر القلوب، ولكن

ضعفي يغلبني، ووحدتي تحاصرني، وأيامي تتمنى من يزورها ولو عابر طريق.

لم يكن لى سوى طيف تارا يزورنى، ولم يكن سوى رواياتى من يؤانسنى.

*****

دخلت البيت بعد يوم شاق في عملى فوجدت جلبهار تبكي، كانت تمسك بجريدة قديمة وجدتها في الأدراج وهي ترتب البيت.

سألتها عما يبكيها فمدت يدها بالجريدة، ربتُّ على كتفها وقلت لها:

بهدوء أحكي لي ما قرأت وأبكاك.

- قرأت قصة طفل قتله الدواعش في تونس، و كان الولد راعي غنم يرعى شويهاته بجبل سلتة، وقد خرج الولد وابن عمه صباحا لرعاية الأغنام، ثم عاد ابن عمه البالغ من العمر أربعة عشر عاما إلى بيته، وهو يحمل رأس الطفل بين يديه ملفوفا في كيس بلاستيكي.

ثم انفجرت في البكاء ثم استطردت:

- تصور انه طفل يتيم الأب يعمل في الجبل حيث تعوّد أن يجمع الأعشاب، ويحتطب و يرعى الأغنام ليعيل عائلته، بدا يخطو أول خطوة إلى

الشباب، بلغ عامه السادس عشر، غض الأمل بريء المرح، يلهو مع شويهاته التى تتسابق على قيد ذراع بقربه، تنتظر سخاء الشتاء ليعمر مرعاها، ويروي الزرع فينبت معه الأمل في رزق وفير، وكان الأمل يحدوه عاما بعد عام ويوما بعد يوم .. وربيعا تلو ربيع، حتى جاء ما وصفوه بالربيع العربي بما لا يشتهي وترنو شويهاته، فكان يتمنى ربيعا في وطنه فيتحرر فيه من العبودية وفيه يغاث الناس بالحرية، فيعم الرخاء، ويسكن دروب بلدته الفقيرة التى ربما لا يعرف المسئولون فى تونس عنها شيئا، كجبل سنجار الذى هاجموه وقتلوا أهله.

أمسكت بالجريدة فقرأت اسم الولد قلت لها:

- لا تبكي يا زهرتي، مبروك كمن مثله من الشباب فرح بالثورة، وانتظر الرخاء القادم من غيماتها الرمادية التى كانت تعبئ سماء الوطن مبشرة بغيث وشيك، ونعيم مقيم فى كل أرجاء الوطن، فما وجد من غيماتها إلا غيمات الحرائق ودخان النيران التى اشتعلت فى أرجاء الوطن.

كنت قد قرأت عن قصة الولد وفكرت في ضمها لأحداث الرواية، لأظهر ما جلبته ثورات الربيع على بلادنا وكيف سمحت بتوغل الدواعش فيها.

الولد البريء كان ينطلق مع كلبه وشويهاته، يحرس الكلب الشويهات من أى خطر يهددها، ويمرح معه هنا و يقفز هناك بفرح وانتباه، مطمئنا أنه لن يجور ذئب على شويهاته، في وجود كلبه الوفي، الذي كان يقوم بواجبه طائعا ودودا ..

كان المرعى رغم فقر زرعه يتلون حُبّا ووفاء، بهذين الغِرين وثالثهما كلبهما وشويهات عجاف، والأمل الذى كان طيفه يحدوهما كسربِ دوري يحلق في سماء شبابهما الواعد، ويغرد بسعادة يحلمان نهما سوف يجنيانها شبابا بعد أعوام قليلة،وغيمةِ فرح تظلهما؛ فتبدد قيظ سنوات القهر التى مرت تحت نير الظلم، والفساد اللذين عاشتهما البلاد، ترقرق الحلم كنهر عذب المذاق في عينيهما .. بعد الثورة، وإذ بأربعة من الذئاب السود تحيطهما، ولا يستطيع الكلب حمايتهما منهم، فلم تكن غاية الذئاب شويهاتهم، بل كان غايتهم ذلك الغِر الذي لم يؤذِ أحدا فى يوم من الأيام، اتهموه أنه يتجسس عليهم، لصالح الجيش التونسي؛وكان جزاؤه قطع الرأس.

حيث ظهر الذئاب السود، المجموعة الإرهابية التابعة لكتيبة عقبة بن نافع الداعشية وقاموا باحتجازهما وتوجيه الاسئلة لهما عن سبب وجودهما في تلك المنطقة فأخبرهم مبروك السلطاني أن الجيش طلب منهما أن يرعيا في هذه المنطقة، و يحتطبا فيها، و أن يبتعدا عن

المنطقة العازلة، فأثارت كلمة الجيش مخاوف الذئاب الدواعش، و شكوكهم فى أن الطفلين يقومان بالتجسس عليهم لصالح الجيش، وكأن براءة الفتى في ذكره ما حدث بمثابة اعتراف ضمني منه أنه جاسوس على الدواعش لصالح الجيش، فقاموا بالاستيلاء على بعض رءوس من أغنامه التي يرعاها ثم قاموا بقطع رأس الصّبي، أمام عيني ابن عمه وكلبه وشويهاته الباقيات، وسلّموا الرأس لابن عمه قائلين له: سلم هذه الأمانة إلى عائلته.

أخذ رفيقه وابن عمه الرأس، ودمعه قد فر من عينيه خوفا، ورعبا فلا بكاءً و لا أنين، كان يستطيع أن يفسح لهم من صدره تنهيدة أو من صوته المخنوق صرخة فزع، هرول إلى بيته، يحمل الرأس لعائلته، لوالدته التى ودعها صباحا مقبلا يدها، طالبا منها الدعاء بوفرة الرزق، فإذا به يأتيها منه الرأس دون جسد، وكأنه أرسل إليها رأسه لتقبلها قبلتها الأخيرة قبل أن يوارى الثرى جسده النحيل، التقطت الأم الرأس وجلست تنعى الصفاء، والبراءة التى أغتيلت فى وطنها، فى صورة مبروك.

وهناك عند الشجرة الوارفة، احتضن جثمانه الثرى تحتها، فابتسمت له أغصانها وراحت تخصف عليه من ظلها، وهو متمدد تحته جسد بلا رأس، أهدته

الظل يوم لا ظل بقي له على أرض المرعى، ولا أثر لقدمه تحت ظلها، ولا صدى يتردد فيرتطم بجذعها لضحكاته مع كلبه الوفي، كانت له أم تحتضن جثمانا دون رأس يرقد تحتها، وأمه هناك تحتضن رأسا بدون جسد، هو من كان يرويها فى سابق أيامه من عرقه حتى اشتد عودها، وتفرعت منها الغصون، واليوم سقاها من دماه، بكته الشجرة بالصحراء حيث لا باكين يبكونه سواها، وأغصانها التى مادت منحنية، تحاول مصافحته وتقبيله، وبضع وريقات ثكلى ارتمت فوق جثمانه لعلها تستر عورة موته، أو تدثر الجسد الذي ما له من دثار سوى بعض من حبيبات الرمل تستر هروب ظلّه عنه وقد مالت الشمس للمغيب، فأهدته بعضاً من دفئها قبل الرحيل، واكفهرّ وجه السماء فتساقط دمعها فوق جثمانه الندي .. تقوقع الأمل محاولا الغوص بعمق الأرض من تحته فما عاد له بعده فوق هذه الأرض مكان، فر الأمل بين حبات الرمل، الذى لم يرتضِ أن يشرب دماءه المهرقة فوق جبين الصحراء، و كلبه باسط ذراعيه يحرسه كما كان يحرس شويهاته من قبل، و تذرف الدموع من عينيه، فزعا وتذللا تحت أقدامه، كأنه يعتذر عن تقصيره فى حراسته، وحمايته من ذئاب البشر، جلس يضفي عليه محبة خالصة للروح، ووفاء هو غريزة جبل عليها الكلب، وافتقر إليها الذئاب.

ذبح الطفل على أرض المرعى الخضراء، وترك ملقًى على رمال الصحراء، تحمل روحه هويته العربية مكتوبا فيها، عربي القومية، إنسانيته في وطنه منسية، وكأنه بدون هوية .. فما بكت عليه العروبة، ولا حزنت لموته القومية.

قطعت رأسه، وظلت رأس الأفعى بعنفوان الرقطاء تسكن الصحراء، و الرّأس هناك عند الأم، ليس لها صوت أو أنين أودعته (ثلاجة) حتى لا تتشوّه ملاحته بغياب الروح، هكذا حدثها قلبها .. لتبقي ملامحه على غضاضتها ما استطاعت من زمن، قبل أن تأتيها الشرطة.

وجاء الجنود عشاء يجوبون موطن هزيمة وطن عجز أن يحمى طفلا لم تكد قدماه تطأ عتبة الشباب، ليجدوه مسجى تحت شجرته وقميصه مروي بدماء صادقة الشهادة.

*****

كان أخونا التونسي "بو جود" من جمهورى قبل توبتى عن الفن، هكذا أخبرني في جلسة لى معه، وسرد لى أغنياتى التي كان يرددها، كنت أحاول معرفة أسرار وصول هؤلاء الشباب إلى هذه الوحشية في الانتقام ممن يسمونهم الطواغيت، كنت أسأل و أتعجب من المقصود بهذا الانتقام الحكام كما يدعون أم الشعوب كما رأيت.

أناقته كانت تلفت النظر، رغم أن ملابسنا متشابهة وتكاد تكون موحدة، لكنه كان له هيئة مختلفة، طلته كانت أنيقة، مدحت أناقته ذات مرة فكانت مدخلى للحوار معه، شكرنى وضبط عمامته ومسح بيده على لحيته وتعاظم وتكبر قائلا:

- هذا شأن كل التوانسة يا أخي، نحن نولد بهذه الأناقة تسرى فينا، حتى بلادنا نظيفة نحافظ على مظهرها.

- أنا علمت أنك كنت تتمنى أن تعيش بفرنسا قبل انضمامك للدولة.

- ومن قال لك؟

ضحكت من قوله فاحمرت عيناه غيظا، فأسرعت أفسر له سبب ضحكتى:

- لا أضحك منك يا أخى_معاذ الله_؛ فقط علمت أن التونسي عندما تسأله يرد السؤال بسؤال، وها أنت تثبت لى ذلك.

ابتسم وحاول أن يقصى الفكرة عن رأسي:

- لست وحدى، هذا حلم كل تونسي، الهجرة للبلاد الغربية كانت حلمنا، كي نستطيع عمل ثروة، حتى الزواج من أجنبية كان هدفا للحصول على عيش رغيد والوصول للثراء.

ربما أجاب بو جود على سؤالى التالي ولكننى أحببت أن أنتقل به إلى بغيتى الأساسية وهي تونس وثورتها.

- ولماذا جئت هنا؟

بدأ صوته يأخذ نبرة الجدية:

- جئت بعد الثورة التونسية، وكان لابد لى أن أنتقل لما هو أوسع من تونس، فالأمر يخص أمة مستعبدة من حكامها، أتعرف اسمى.

قلت بلهفة أبديتها لأفتح شهيته للحكي:

- لا أعرف.
- أنا جواد بوعزيزى، ألا تعرف هذا اللقب؟
- بوعزيزى هذا لقب الرجل الذى أشعل الثورة التونسية .. صحيح؟
- نعم هو، إنه أحد اقاربي.
- أعلم أنه انتحر حرقا، مات كافرا ..

صرخ بحنق:

- لا تقل هذا فالشيخ احمد فاضل أعزه الله دعا له، لو كان كافرا ما دعا له.

تذكرت أن دعاء أحمد فاضل سبب في تكرار حادثة بو عزيزى، في تونس ومصر، وقد تم تفسير دعاءه بأنها تحليل لما أقدم عليه، وتحريض لغيره من الشباب للقيام بما قام به لإلقاء المزيد من الحطب من الشباب، لإضرام النار فى مزيد من بلدان الوطن العربي وأن

يومها سألنى إياد، لماذا فتاوى أحمد تختلف باختلاف المصالح، كان أحمد في بداياته ينعت من ينتحر بالكفر ويدعو عليه أما بوعزيزى فقد دعا له، ليستثير الناس لعمل ثورة.

هذه الاتهامات دعت الشيخ إلى محاولة تبرئة نواياه بأن أصدر بيانا يوضح فيه الأمر، ومن نصه: " إني أتضرع إلى الله، و أبتهل إليه أن يعفو عن هذا الشاب، ويغفر له، ويتجاوز عن فعلته التي خالف فيها الشرع الذي ينهى عن قتل النفس، كما قال تعالى: { وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } [النساء: ٢٩]، ودعوت الإخوة في تونس، و المسلمين عامة: أن يدعوا الله معي بالعفو عنه، ويشفعوا عنده لهذا الشاب الذي كان في حالة ثورة وغليان نفسي، لا يملك فيها نفسه وحرية إرادته، فهو أشبه بحالة الإغلاق التي لا يقع فيها الطلاق، "لا طلاق في إغلاق"". رواه أحمد).

وكأنه بهذا التصريح ضرب عصفورين بحجر واحد، فقد أوضح أنه يحرم قتل النفس، وأيضا يحل للشاب الذى أحرق نفسه ما فعله بأنه كان فى حالة إغلاق لعقله فهو لا يدري ما كان بنفسه فاعلا.

أضرم على الأقل خمسون مواطناً عربياً النار في أنفسهم لأسباب اجتماعية متشابهة تقليدا لاحتجاج البوعزيزي منهم ثلاثة شباب جزائري على إشعال النار

في أنفسهم، والمصري "عبده عبد المنعم حمادة" بإشعال النار في نفسه أمام مبنى مجلس الشعب المصري احتجاجا على إغلاق مطعمه.

و بموريتانيا حيث أقدم رجل أعمال في موريتانيا على إحراق نفسه داخل سيارته أمام مجلس الشيوخ الموريتاني احتجاجا على سوء معاملة الحكومة لعشيرته.

هدأت من ثورة بو جود وسألته عن الأسباب الحقيقية لإحراق بو عزيزى نفسه، متظاهرا بعدم معرفتى لها، فربما قال جديدا:

- وأنا أدعو له أيضا يا أخي، لكن لماذا هانت نفسه عليه هكذا.
- عندما تهون على وطنك وتلقى فيه كل أنواع الإذلال فإن الحياة تهون.

اندلعت أول شرارة لأحداث الثورة تضامنًا مع محمد البوعزيزي الذي قام بإضرام النار في جسده في نفس اليوم تعبيرًا عن غضبه على يد امرأة من الشرطة واسمها فادية التي قد أهدرت كرامته بصفعه على وجهه أمام الناس، ومصادرة العربة التي يبيع عليها الخضراوات والفاكهة.

- لماذا لم يأخذ إجراء معها بدلا من الانتحار؟

عاد بو جود إلى عادته التونسية وسألني:

- وهل عرفت انه لم يأخذ اجراء؟
- هذه الشرطية ظلت تمارس الظلم والقهر على محمد لمدة سبع سنوات هي ومعاونها من البلدية، لم يحرق نفسه إلا بعد أن تحمل طيلة هذه السنوات ما لا يطيق، حتى أتمت ظلمها بهذه الصفعة.

كانت تصادر بضاعته مرتين في الأسبوع، وكانت تلك البضاعة المصادرة تعرف طريقها في كل مرة إلى بيوتهم، و بطونهم ويبقى بطنه وعائلته التى ينفق عليها خاوية إلا من قرح الفقر، و قيح القهر، وهم لا يبالون بذلك ولا يعنيهم ما يعاني ذاك المسكين وأسرته.

في يوم الحادث صادرت بضاعته والعربة، فاتصل بخاله الصيدلاني ليستنجد به، و تدخل الخال واسترجع له المحجوزات، لكن بعد عشر دقائق من الإفراج عن المحجوزات عادوا مجدداً، وصادروا الخضار.

كان يحكى لى وكأننى أسمع قصة من قصص الشارع المصرى، نفس المشاهد كنا نراها من البلدية مع باعة الخضراوات والباعة الجائلين في كل مكان.

- وماذا فعل عندما عادت الضابطة لمصادرة الخضر؟.

نفث وجعا من صدره الضيق وقال:

- عندما بدأت في مصادرة البضاعة ووضعت أول سلة فاكهة في سيارتها وشرعت في حمل السلة الثانية اعترضها، فدفعته وضربته بهراوتها. ثم حاولت الشرطية أن تأخذ الميزان، وحاول مرة أخرى منعها، عندها دفعته هي ورفيقاها فأوقعوه أرضًا وأخذوا الميزان. بعد ذلك قامت الشرطية بتوجيه صفعة على وجهه أمام من بالسوق، عزّت عليه نفسه وانفجر باكيا من شدة الخجل. ثم صاح بها قائلا: "لماذا تفعلين هذا بي؟ أنا إنسان بسيط، لا أريد سوى أن أعمل".
- وكيف تركها تضربه ولم يحاول منعها أو رد الصفعة.
- هو رجل بسيط ليس عدائيا استحلفها أن تترك الخضراوات وعندما اقترب منها صفعته على خده، وسدد له معاونها عدة ركلات.

و لم يكتفيا بذلك بل ضرباه على أنفه حتى انفجر بالدم عندما حاول اللحاق بهما في مقر البلدية، و عندما ذهب إلى مكتب الكاتب العام للبلدية ليتقدم بشكوى ضدهما.

رد عليه قائلاً:

يا مسخ متكلمنيش، وهي إهانة (بالتونسية تعني يا قذر لا تحدثني).

حتى المحافظ رفض استقباله أو سماع شكوته، فخرج إلى الشارع بعد أن احترق بكامله من الداخل وفاحت رائحة شواء كبده ظلما، خرج يصرخ من شدة الغيظ، ثم عاد إلى السوق وأخبر زملاءه الباعة بأنه سوف يشعل النار في نفسه، ولكنهم لم يأخذوا كلامه على محمل الجد، وقف أمام مبنى البلدية، وسكب على نفسه مخفف الأصباغ (ثنر) وأضرم في نفسه النار.

انخرط بو جود في البكاء وهو الرجل الشديد عندما استعادت عيناه منظر الاحتراق.

استطرد بغيظ:

- في ذات الوقت الذي كان يحترق فيه كان حارس المحافظة غارقا فى الضحك عليه، وهو يشاهد النار تشتعل في جسده، دون أن يحاول إنقاذه، لم يكن يعرف أن تلك النار أشعلت قلوب وعقول كل من شاهدوه وقتها و بعدها في القنوات التليفزيونية التي أذاعت الخبر بمشاهده، حتى أنبوب الإطفاء في مقر المحافظة كان فارغاً

عندما أخرجه شخص لديه قلب في محاولة لإنقاذه، كانت الصفعة التي تلقاها بوعزيزي هي التي أججت عنده فكرة الانتحار فهو لم يكن ليستطيع أن يلقى أهله فى قبيلته المعروفة بقبيلة الهمامة التى من المتعارف لديها أن الذى تضربه امرأة يلبسونه فستاناً، ولا يحتسب من الرجال بعدها في قبيلته.

- ولماذا تركوه للموت ألم يسعفه أحدهم؟
- نقلوه إلى مركز الإصابات والحروق البليغة.

ومن المضحك أن زاره زين العابدين بن علي في محاولة لتهدئة الأوضاع وامتصاص الغضب الشعبي، ولكن أصرت عائلته على ملاحقة الشرطية، ومحاكمتها أمام الرأي العام الدولي، هي وكل من صادروا أحلامه في الحياة، وأحرقوها بصفعة من يد امرأة على خده البائس. وكانت والدته قد طالبت بمقابلة الشرطية ومحاكمتها علناً أمام الشعب، والعالم، ولكنها بعد موته قالت إنها فخورة به لأنه كان سببا في التغيير وسحبت شكواها ضدها.

وكما هي شعوبنا دائما يكرم فيها الميت، ويهان فيها الحي، فبعد إهانة البوعزيزى التى أودت بحياته تم تكريمه، وكان الفن هو أول من كرمه، فكان الفن كماهو

دائما داعما للثورات، وغنى لاسمه الكثير، وأطلق اسمه على أهم شوارع تونس، ثم انفجر ضاحكا:ـ

- شارع السابع من نوفمبر وهو تاريخ وصول بن علي للحكم نفس الشيء في سيدي بوزيد، أطلق اسم البوعزيزي على الشارع الرئيسي في المدينة، وغاب اسم بن على، أخذ يعدد لى التكريمات التي حصل عليها بوعزيزى بعد الانتحار، تغير اسم مركز الإصابات والحروق البليغة الذي توفي فيه، أصبح اسمه مستشفى محمد البوعزيزي أصدر البريد التونسي طابعا بريديا يحمل اسم البوعزيزي وصورته؛ أتعرف؟
ارتفاع اسم بوعزيزى هذا هو أحد سخريات القدر من القادة الذين لم يقودوا شعوبهمم إلا للفقر والانتحار ... أليس هذا يبكي ويضحك.

ولم يقتصر تكريم اسم بوعزيزي على العالم العربي فقط ففي فرنسا، فقد أعلن عمدة باريس أنه سيعمل على إطلاق اسم البوعزيزي على أحد ميادين باريس، لأن هذا الشاب " يعد رمزاً لكفاح تونس من أجل الديمقراطية والعدالة والحرية "، وهذا على الرغم من حظر تسمية شارع في باريس باسم شخصية لم يمر على وفاتها خمس من السنوات، إلا أن إحدى ساحات الدائرة الرابعة عشرة في باريس أصبحت تحمل اسم

«ساحة محمد البوعزيزي" قالوا إنها تحية للشعب التونسي وثورته في يناير عام ٢٠١١»، وأعلن أنه من المقرر أن يتم إضافة نصب تذكاري في الساحة.

ولكن يا أخي يوما ما سيقول التاريخ هل كان ماحدث في باريس تكريما لاسم بوعزيزى، والثورة التونسية أم أنه شماتة فى الشعب التونسى الذي ثار يوما من الأيام على الاحتلال الفرنسي، فاحترق ظلما على يد احتلال من نوع آخر من بنى جلدته .

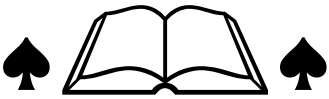

-١٩-

لست أدري هل أحب نفسي لدرجة أنني أجيد الاستغناء، كي لا أمزقها بالفقد، أم أنني أكرهها حتى أنني أعذبها بالابتعاد عمن أحب، كنت أظن أن فقدي لإياد يعني الموت، وأنني لن أستطيع العيش إن لم يكن وجهه هو اشراقة نهاري ودفأه الذي يبث الحياة في أوصالي وقمر ليلي يؤنسه ويسامر ثوانيه وذرات الحب تنتشر حوله نجيمات من نور، تمنح المحبين الساهرين من عشقنا ما يتقوتون به من حب، ولكنني استطعت أن أبتعد وأبعده عني ما استطعت إلي ذلك سبيلا، أراه ينتظرني في مكان لقائنا، فأعدل مساري لاتجاه معاكس، ينضم إلى مجلسنا أنا والزملاء، فأصرف عيني المشتاقة إلى فحص ذرات وجهه وعدها كي تطمئن أن عددها تام غير منقوص ولو ذرة منذ ابتعدنا، وأرى عينيه لا تفتأ تنثر دفئها حولي، محاولة إخفائي عن كل من حولي، فأظهر عدم الاكتراث بنظراته وأنني حتى لا أراها، وعندما يقوم لجلب أي شيء، أتظاهر بالإعياء ملقية بصدري على مذكراته، أحتضن بصمات أصابعه وحنان كفه الذي منحها إياه وحرم يديَّ من لمسه، أشتم عطره في ثنايا الورق، أعُب منه قدر ما أستطيع من الأنسام،

زادا لسِنيّ الفقد التي تزحف غيومها وأسمع فحيحها يخنق من حولي النسيم ويجثم على إطلالته في سمائي، وعندما يعود ابتعد عنها وألملم بقايا لهفتي من فوقها، أحشو بها صدري كي لا يستبين خفقانه، وأواريها ثرى ضلوعي المفتتة، التي هشمتها بقبضة التجاهل كي لا تفوح رائحتها أو يلمح طرفها إياد أو من حولنا.

فأعود بعد هذا العناق وحسك الابتعاد مغروس بكل ذراتي، صنعت غلافا من جليد اللا مبالاة بعودته، ربما يطفئ ذياك الجليد نيران حنيني، ربما يشفي غلة شوقي، تصنُعي بأن مشاعري ثلجية.

أثناء تناولنا الفطور في كافيتريا الكلية، حضر إياد كعادته، سلم على الجميع وعليَّ وجلس تاركا دفاتره واوراقه أمامي وكان بينها ورقة مكتوبة بخط يده مغلفة بغلاف شفاف، ثم تركنا لبضع دقائق مدعيا أنه سيتحدث مع زميل بالخارج.

امتدت عيناي على الورقة تلتهم حروفها فقد اشتقت لحروفه.

كان مكتوبا فيها ..

حبيبتي سحرك تغذى على نور روحك الشفيفة، نما في حناياها، وولد من رحم نفسك الطاهرة، ألتقم في فمه عذوبة مدامعك، فاض من نور عينيكِ، فبات مهده محاجرها، توسد جفنيك، فأطلق أهدابها سهما سهما، في

قلب كل من طالت عيناه ملامحك، كسياف تقدم ركب أميرة أسطورية، استوجب مرورها الانحناء، وحُكم على من لمحها بقطع الرأس.

وكنت أنا ذاك الجريء من نال شرف رؤيتك،، أنا القتيل المسفوح دمه، أنا الذبيح الذي عشق سهمها المغروس بقلبه، أنا الأسير الذي لكلما حُل قيده، قدم معصمه مستسلما ..

أنتِ من أنتِ؟!

وما سر هذا السحر في عينيكِ؟!

كيف يُلقي شباك الأسر على كل ناظرٍ؟!

كيف يغرس بذور الحب في تربة جدباء لا تعرفه؛ فتنبتين برعم عشق بقلبه بمجرد لمحة ألقاها ولم يُعقّب؛ فطار منه اللب؟!

كيف لتلك النظرة الحانية التي تمنح الشفقة، وتتلقف الناظر إلى روضها أن تفتك بلائذِ أعتابها،

فلا يقوى على الخروج من قضبان محرابها؟!

أهي روح الحب قد استوطنت تلك العينين؛ فهامت القلوب تطوف حولها تنذر نفسها تقربا؟!

أم هو أكسير الحياة أختصتك به القدرة،وأطلقت يديك في أن تمنحيه أو تمنعيه،(فيحين أجل من أهدابك)؟!

أم أنه سطوة الجمال؛وكأن الله بها حباكِ؛ فتنفطر القلوب ولا يلين لكسرها؟

مأسـور أنـا بنظـرة، دون أن تنطقـي، أمـا حـديثك ... استلاب من نـوع آخـر، صـوتك رنـة دف قدسية يسكر كصهباء سائغ خمرها.
أما تلك الشفتان، ضفتا نهر عذب، سلسبيليّ اللمى.
تنهيدتك، نيران تلفح المسافة بيننا فتصهرها، حين نطقت باسمي اختال تياها سكرانا إذ مر بشفتيكِ العِذاب.
أيُّ سر فيكِ جعل منك معجزة؟!
في أدق تفاصيلك، وفي كامل بهائك؟!
أي جاذبية تلك يا نجمة تتهادى في سماء الحسن، تشدني فأتشبث بسناها.
فيـكِ كـل عـالمي، كـأنني أدور فـي بلورتـك السحرية، تتمتمين تعويذاتك، فلا أخرج منها.
أبصـرك كـل مـن أرى، وكـأن ملامحـك طُبعـت على كل الوجوه، فحيث أكون أفتش عنك كمسحور، أو كأن روحي هامت بروحك، تستقي منها حياة.
عشقتك منتهى العشق، وكدت من فرطه أن أجن، عبـد أنـا لمـن أهـداكِ كـل الحسـن وجملـكِ، ذليـل فـي محرابه.. وما استطعت أن أكون لغيرك ..
أنـتِ فـي عينـي كـل النسـاء، ومـا هـن إلا بعـض منـك، فالنور القدسيّ الذي بهر روحي، لم أجده إلا في عينيكِ..
لست أدري .. هل شع في عمري فلا أرى إلاه؟!

أم أن ناره أحرقت ما دونك من نساء؟!

أنا عبد آبق تلقفته لعنة عصيان ..

كيف ظننتُ أني قد خرجت من بلورتك و لازلت فيها أدور؟!

كيف انطفأت نيرانك، وجسدي ذائب كل ليلة في هجيرها؟!

كيف ظننتُ أنني ملاقٍ الحب بعدكِ؟!

كيف عاديتك وأعلنت حرب الهجر؟!

وأنا كل أسلحتي ودرعي أنتِ؟!

هزأ بي الوجد، متلقفا قلبي كل ليلة .. وأنا مستسلم، استعذب الألم، وأرتشف الوجع غصة غصة، لعلي أحس لذة ماضينا.

وستبقين عشقي الذي أسطره في رواياتي، وأخلقه في أفلامي، أو أراكِ في نجماتي اللواتي اختار فيهن لمحة منك، وأنثر حبي وأوزعه على بطلاتي، فأشم ما نثرته، وأقتاته زادا لأيامي الخاوية.

فصارتِ أنفاس صبحي، وحرائق الشفق التي تنساب بين أضلعي كل مساء.

أخذتِ كل فتنة الأرض.، وذابت بين جفنيكِ في تلك العينين، وكأنما عندما فُتق الكون في بداية الخليقة وتناثرت ذراته قد جمعتِها أنت في اندماج جمع الأكوان

بكامل جلالها في مقلتيكِ، فأصبح الكون أنتِ، وكأن كتاب القدر قد كتب على جبينك، وقدري معقود بناصيتك.

وحين أضعتك ضاعت أقداري، وابتساماتي ذهبت أدراج رياح تنهيدة حزن قد أخرجتها بصلافة غروري من صدركِ، كتب على روحي الشقاء، ولعنة أصابت قلمي، فكتبت عليه أن يزرع الأحزان في حقول الورق، وينتظر حصادها دمعا، في عيون القراء، ووجعا فيمن يشاهدون أفلامي.

وكأن وهج أدمعك ينبعث في كل عيون المشاهدين، وينطفئ نور لقائي بك، عند انطفاء شاشتي الفضية، التي أنثر عليها أوجاعي مشاهدًا.

روحك تلامس صوري، ويتلبس دلالها نجماتي.

تعلمت أن أظل مخلصًا لكِ فأنتِ كل وجودي.

سأظل كاتبك .. أكتبك ... فأنت تمثلين لي النظرة والكلمة والفكرة فأنتِ الإبداع، والسمو، والحب.

أنت كل من حولي،ولاحول لي إلا ما تمنحه لي روحكِ من إلهام.

وضعت أوراقه امام علياء بعد أن انتهيت من قراءة رسالته وفهمت لما وضع الأوراق أمامي، وكان هذا ردي على ما قرأت لنفسي.

كيف أصدق كل هذا الحب المسطور، وقد طعنني فقتل مشاعرى؛ أنا الآن بلا حب_ وسأظل _. أما ردى عليه فكان ذهابي دون أن أنتظر عودته.

*****

يخلق العرس عادة هالة مقدسة حول العروس التي تخفي كل فرحتها ورهبتها خلف الوشاح الأبيض، ولكنه في حالتي كان يخفي وجعا استطاع الكحل وأحمر الشفاه وكل أدوات الزينة إخفاء تقاسيمه التي كانت مرتسمة على وجهي.

جلست في عرشي المزين بسعادة أهلي التي كانت أزهى من الورود، المرصع بفرحة زوجي، المتلألئ بدمعاتي الحبيسة في محاجر عينيّ، فكلما نظرت لأشاهد جماله، ارتد إليَّ البصر خاسئًا بفرحة عرجاء لا تقوى على الابتسام، تترنح سكرى من الألم، ولم أستطع الرقص مع عريسي الذي كاد أن يأخذني من تحت ذراعي، ويتوج مرفقي بالقمر في عليائه، ولكنني كان يكبلني خذلاني وتتثاقل خطواتي من فرط خيباتها التي ورثتها قدماي بعد سيري الخائب في طريق الحب الهارب من بين أناملي المرتعشة، التي كانت تحاول في رقصتي، القبض على طيف إياد الذي كان يحوم حول شباب اسرتي من فتيات وفتيان في دائرة الرقص، كانت

الموسيقى تحاول انتزاع ذكراه من رأسي، ولكنها هي الأخرى كانت فاشلة في تحقيق غايتها، وكانت الأهازيج تخترق جدران القاعة، وتحفر بمعولها في جنبات حواسي، محاولة زرع السعادة بها ربما تنبت فرحا كالذي يحس به عريسي، ولم تفلح هي الأخرى إلا في غرس مزيد من الوجع في زوايا روحي.

اقتادتنى صديقاتى للرقص معهن، وقفت لبرهة ثم تعللت بالألم الذي تسبب فيه حذائي ذو الكعب العالي، وتركت الحلبة لعريسي وأصدقائه، وجلست أتابع المدعوين الذين جاءوا ليتابعوني ...

كنت اتشبث بكل مظاهر الفرح من حولي أحاول أن أجعلها تأخذني من خندق أحزاني في زورقها المزركش بالزغاريد، والموسيقى وعطر إلى ساحل السعادة لأصل من خلاله إلى جزيرة الأمل في حياة جديدة. تنافست صديقاتي في نثر البهجة من حولي وكذلك بنات العائلة في أن يصدحن بالزغاريد فكلما كانت الزغرودة أعلى صوتا و أطول مدة كلما كان إعلان صاحبتها بالفرحة أكبر ...

انسابت الموسيقى في القاعة في رقة دافئة ... أحاطت بكل الحاضرين، وكان عطر الفرح ينساب معها هادئا وبتلات الورد تنتشر على الطاولات، وكل زهرة

كانت تحاكي في رقتها وجه الفاتنات الجالسات هناك لا يدري بهن أحد؛ ولكن عيني لاتخطئهن.

كانت تجلس هناك في آخر القاعة فتاة من بنات العائلة كانت منذ عامين طالبة بالمدرسة الثانوية ...ومنذ عام كانت أما لطفل، رحمه الله ورحم أمه بأن اختاره إلى جواره قبل أن يبلغ العام، كانت شعلة من فرح، هذا قبل تزويجها دون أن تكمل عامها الأخير في المدرسة، و تزويجها من رجل قارب عمر أبيها، لاعتقاد والدها بأن تزويجها المبكر هو أفضل من أن يدعها في دراستها التي لا طائل منها كما ظن، أو كما كان يبث في روعه من تلك الأشرطة التي كان يسمعها من الدعاة الذين انتشرت مواعظهم الداعية لارتداء النساء الحجاب وتزويج الفتيات المبكر، وإمساكهن في البيوت، وعدم خروجهن لدراسة أو عمل بزعم منهم، أن خروج النساء هو السبب في تأخر الأمة الإسلامية وأن عودتها لبيتها، هو الحل الذي سيجعل مجتمعنا الإسلامي يرتقي ويبلغ العلا والرفعة التي يستحقها، فما كان منه إلا أن جعلها تترك الدراسة و ترتدي تلك الملابس التي جعلت منها امراة بلغت الأربعين من عمرها، ومن ثم تزويجها برجل كان صديقا له في دولة من دول الخليج العربي، كان قد ذهب للعمل فيها، جلست تتابع بنات العائلة اللواتي في عمرها، يرقصن في عرسي، تخيلتها مثلهن ترتدي ما يرتدين وتتراقص معهن فرحا كما يرقصن،

وتذكرت يوم عرسها، وكيف كانت الفرحة تحملها إلى جنة كانت تظن أنها داخلتها، عندما أخبروها أنها ستتزوج وتركب الطائرة لتذهب إلى زوجها في بلاده، فألقي بها في غيابات جحيم مع زوج له غيرها زوجتان، فأصبحت لهما خادمة، وعادت بطفلها قبل وفاته بعد فترة زواج وجيزة، وقد تركت ابتسامتها هناك على سلم الطائرة التي أقلتها للذهاب، كانت تظن أن سعادتها في أن تكبر قبل أوانها وتصير زوجة، ظنا منها أن مع تأشيرة الخروج من البلاد أيضا الخروج من السجن الذي يفرض علي الفتيات في بلادنا، وأنها تأشيرة لدخول عالم النساء الذي تظن أنه سيحملها إلى حرية كانت تظن أن النساء يتمتعن بها أكثر من الفتيات فإذا بها، تأشيرة لسجن أكبر، سجن وأدت فيه براءتها، وقتلت فيه أنوثتها، سجن الزواج المبكر، وقبر الزواج المتعدد، أقنعوها بها بدعوى الحياة الإسلامية، فعاشت الجاهلية في حياة ليس لها من معاني الحياة الإسلامية إلا ما يراه زوجها وأبوها المفتون بحياة هذه البلاد الخادعة التي توحي بأنها راعية الدين، التي لا ترعى إلا مصالح رجال وهموا العقول وفسروا الدين بما يوافق هواهم ومصالحهم، وعادت بعدها مطلقة تحمل طفلها الرضيع، قد رفض أبوه الانفاق عليه طالما ستأخذه في حضانتها، فترفق بها الرحمن، وخلصها من كل آثار تلك الزيجة، ولكن لكل أثر من تلك الآثار جرح غائر مرتسم على

ملامحها ويغرغر بدمعة تشوب ابتسامتها الهادئة ... التي أرسلتها لي من مكانها هناك ..

كانت في الزاوية الأخرى تجلس جارتنا التي مُنحت منذ سنوات لقب عانس، بعد أن رفضت الزواج بعدما تزوج جارنا الذي كانا قد ولدا معا كتوأمين في نفس اليوم، وكان الحب بينهما ثالث تلك التوأمة، ولكن والدته لخوفها أن يجعل الحب ابنها ينصرف عنها، ادعت أنها أرضعتها، لتحرم زواجهما .. جلست تتابعه وهو جالس بين زوجته ووالدته، وهي هناك وحيدة تستمتع بمراقبته عن بعد كما تفعل منذ حُرِم عليها ..

تنقلت عيناي بين كل المدعوين والمدعوات في عرسي، فوجدت مظاهر الفرح بادية على الجميع، والسعادة غائبة.

****

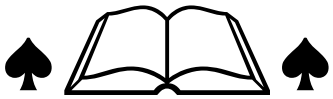

-٢٠-

أنا كاتب الحب، كنت أخافه، أرهب أوجاعه ولا طاقة لي بخيباته، وما كنت مستعدا لأن أفقد لذته، في رتابة روتين الارتباط، كنت دوما في انتظار إثارة تدفعني للكتابة، كانت لمستي لنعومة الأوراق تنشيني أكثر من لمسة يد امرأة، وكان عناق القلم، دفئًا لأناملي يسري بأوردتي، كأنني عانقت ألف أنثى في لحظة، أما عن حروفي، أطفالي الذين أنميهم ليكبروا ويصيروا كلمات راشدات تتراص بجوار بعضها فتصير رواية شابة، حلوة الملامح، وأنا والدها، أنجبتها في لحظة عشق مع بطلاتها، أريد كثير من الأبناء مثلها، وأنى لي بهم إن عشت قصة واحدة، كتبت ما يشار له ببنان الإعجاب، ويكتب عنه النقاد أروع آيات الثناء والمديح، لم أعش قصة حب طويلة كرواياتي اللاتي معظم بطلاتها يشبهنها، هي ملهمة رواياتي التقيتهن في طريقي، منهن من عشت معها أقصوصة حب في يومين، ومنهن من عشتها في لمحة، عندما قابلتها في إشارة مرور، رأيتها شاردة، أسرني الحزن في عينيها، طوق جيدي وأخذني معها في رحلة عشق، تركت سيارتي، وكعبد أسير فتح الحب باب سيارتها وأجلسني

جوارها، استفاقت من شرودها على صوت زفرتي التي لفحت وجهها بتنهيدتي الملتهبة، وعندما نامت نظرتها في حضن عينيَّ، سقت مدامعي أوجاعها، وراحت تبكي كطفل شريد عانقته أمه التي التقته على رصيف اللهفة قبل الضياع الذي كان على قيد خطوة منه، وعندما أنار الضوء الأخضر، كنت قد انتهيت من قصتي الجديدة، وأدرت محرك سيارتي لأستكمل رحلة عمرى، كانت روحي هائمة لا تهدأ، ونفسي لا تهوى الاستقرار، ويعجز القلب عن احتمال عبء روح أخرى تسكنه، هي فقط من أحببتها، سكنتني ولم تغادر عشت معها كل قصة، حتى ملهماتي، كانت كل واحدة منهن فيها شيء منها، عيناها، شعرها، رقة صوتها، كانت روحها تسكنهن جميعا، أو ربما أنا من كنت أستحضرها فيهن؛ السّعادة هي ألا تتألم وخاصرتك حقل لأشواك الوجع، ولا تخف والأشباح تسكن جدران حياتك ولا تحذر من شيء يثنيك عن فكرتك. فالشقاء هو احتباس الفكرة بين قضبان الألم الخوف والحذر .

*****

رن الهاتف فهرعت لالتقاط السماعة قبل أن يسبقنى أحد من أسرتى، لم أجد على الطرف الآخر إلا صمتا همست لروحها أستجديها أن تحدثني: يقتلني صمتك، أتمنى أن تطعنيني بمدية عتابك، أهرقي دمي

بطعناتـه، لعـل ذنـوبي فـي حقـك تنسـاب معـه فيطهـر شـرياني أو لعلـك بنظـرة عطـف تضـمدين جرحـي، فتتـرفقين وتغفـري، لا تقتليـني مختنقـا بصـمتك .. لا تتركيني أرتجي كلمة الغفران منك أو أشتهي حتى كلمة سخط .. قولي شيئًا حتى أنكِ كرهتِني.لا .. لا .. لا .. لا ...إياكِ أن تقوليها ... لا تقتليني باليأس من رضاكِ، لا تثقبي زورق نجاتي، فأغرق في لجة من نيران سخطك، فلا أنجو بعدها أبدًا. انتشليني من غياهب الندم، بنور ابتسامة تشي بالسماح.

تعالي نعد طقوس المحبين، ونصلّ صلاة الإياب لمحراب الحب.

فأنا أتوق لتراتيل العشق في عينيكِ.

لا تدعي أنك لن تنسي زلتي، فقلب المغرم مجبول على النسيان ..

لا تصمتي ... فأنا أسمع نبضك وأنفاسك يذكراني، وهذه موسيقانا تأتِيني لتخبرني بأنك انت على طرف الهاتف الآخر تريدين سماع صوتي ..

لا تتركين كبرياءك .. يقتل حبنا جنينا .. لم يكتمل نضجه، فلنعتبر ما مر بنا ... آلام مخاض لأجمل حب.

صمتُ برهة ..

وأتاني صوت الموسيقى (مون أمور) ..

ثم أغلقت الهاتف، أغلقت آخر نافذة كان يطل على ليل عتمتى منها قمر ينيرها، أغلقت باب العودة بيننا للأبد.

وعلمت بعدها بموعد زفافها، تعجلت في الارتباط، بعدما أغلقت باب قلبها علي، فأنا أعلم جيدا أنها لن تحب بعدى، فآثرت أن تتزوج أول من يطرق بابها هربا من ذكرياتنا.

حجزت موعد عريس لدى مصفف الشعر يوم زفافها، واشتريت بدلة زفاف بيضاء، رحت إلى القاعة وتخفيت فى ملابس مصور مرتديا سترتي متأنقا كأبهى عريس.

غيرت بعض ملامحي، كي لا يتعرف عليَّ من بالقاعة، وحاولت أن أخفي نظرتي المشبعة بعشقها كي لا تعرفني منها، رمقتني من بعيد وأنا أدخل القاعة، أخذت تتفحصني والظنون تحيط رأسها وتلتهم أذنيها توسوس فيهما بأن هذا الآتي هو أنا، أصابها خرس الدهشة، ورأيت الفرحة متنكرة مثلي في صورة غضب تتخفي خلف تلك الماسة التي تسكن محجريها، ناورتها كي أستبينها، أخذت أختفي للحظات وأتابع ملاحقة نظراتها والفرحة تطل كلما ظهرت، وتتوارى خلف أهدابها المبللة بدمعها كلما اختفيت، علمت الآن يا حبيبتي أنني مازلت قابعا في نبضك، ساكنا أوشاج صدرك، لن يأخذك مني غياب، ولا حتى ذلك الذي

اقتنص جسدك، لا ينال روحك فروحك لي، ستبقين عذراء ولو مكثت له زوجة مئة عام ...

ولو أنجبتِ منه قبيلة، ستظلين عذراء القلب، فقلبك لن يكن إلا لي.

من قال إن المرأة العذراء هي من لم تتزوج؟!!

المرأة العذراء هي فتاة بكر في مشاعرها، ومشاعرها البكر لا تمنحها إلا مرة واحدة، لمن سكن شغاف قلبها، هي التي سلمت جسدها بشهادة مأذون وشاهدي عدل ولم تسلم قلبها إلا بشهادة روحين وقلبين.

هي التي ارتدت ثوب الفرح لمدة ساعتين، وغاب عنها الفرح منذ غاب حبيبها، فارتدت إهاب الحداد على جسدها الملتصق بالفستان الأبيض، فلم تسعد بملاطفة، ولم ترتعد للمسة، من ذلك الذي أراد امتلاكها جسدا بلا روح.

هي التي ارتعش قلبها واهتزت أوراق ربيعه لأنفاس حبيب لا للمسة رجل يلمس جسدها؛ هي المرأة التي تستيقظ صباحا فلا تجد حبيبها يسكن الشق الآخر من فراشها؛ هي امرأة عذراء ولو أنجبت أطفالاً حالها كحال مريم التي أنجبت ولم يمسسها رجل؛ لم أحكم على زواجها بالفشل إلا ليقيني أنها تسرعت في اختيار الزوج، وهذا التسرع لا يمكن أن ينجب حبا، المرأة إن لم تحسن الاختيار قبل أن تهدي حريتها لرجل، فلن يكن

زواجها مكتمل الأركان، أخطأت تارا في تسرعها، بزواجها من رجل لم يظفر بحبها قبل جسدها، ولم يمتلك قلبها وروحها قبل أن يمتلك جسدها فحبيبتي ستظل عذراء.

لم أطِل مراوغتي لها، بعد أن ظهرت لي محبتها وأثبت لنفسي أنها لن تنسَني أبدا، أخذت أتقدم بخطواتي نحوها، وكلما اقتربت أحسست بدفء عينيها يعانقني، ونظرة تخوف وتساؤل تطل منها، فهي لا تعرف سبب مجيئي ولا لم تنكرت كمصور، فراحت عيناها تتردد بين وجعي والكاميرا التي في يدي، كان جالسا جوارها، رجل يمنح كل من حوله اهتمامه وترحيبه ولايمنحها إلا نظرة كل برهة ربما ليتأكد أنها لم تترك مقعدها، فربما شعر بأنها لا تحبه، حقدت عليه، وكدت أحطم رأسه، ولكني استسلمت لإرادة القدر الذي منحه حبيبتي، اقتربت وعرفتهم بنفسي على أنني ضمن فريق التصوير، بالرغم من أن هيئتى لم تؤكد ذلك الادعاء إلا أنهم صدقوني، كان الوجوم يغطي وجه حبيبتي ويسكن تقاسيمه، حتى حانت اللحظة التي جئت من أجلها ضبطت الكاميرا على الحامل ووقفت أمام العريس بحيث تلتقط الكاميرا الصورة وأنا في موضعه من التصوير كانت هذه لقطة، أما الثانية وقد أعددت توقيت التقاطها، وأنا أنظر في عينيها أبثهما كل الحب وأعانق مقلتيها، ثم اتجهت للعريس وقلت:

هيا يا عريس استعد، وأمسكت الكاميرا مدعيا أننى التقط صورا، ثم سلمت عليها ولثمت يدها قائلا:

- مبارك يا عروس.

ثم تراجعت بظهري حتى وصلت إلى باب القاعة وعيناها تشيعان جثماني المتشح ببدلتي البيضاء.

كنت قد عقدت العزم على أن ألتقط لنا معا صورة الزفاف، نعم صورة الزفاف الأولى ستكون معي أنا، إن كانت الأقدار حرمتني منها، فستكون رحيمة بأن تمنحني ظلها في صورة تبقى معى ما بقي لي من رمق.

كانت صورة زفافنا دائما بجوار سريرى في شقتي بالزمالك لا يراها غيري.

*****

كان سفر أمي السريع سببا في أن انتهت إلى الأبد علاقتي التي لم تبدأ مع هيثم، أخذته منى تلك الفتاة، لم يكن إسلام يستطيع السفر معي في ذلك اليوم وكان صديقه الذى زارنا منذ أيام، هو قائد الطائرة التي ستسافر المانيا والذى اصطحبني وأمي بدلا عن هيثم وعندما وصلنا ألمانيا أتى معنا للمشفى بملابس العمل، تركت أمي بعد أن أدخلوها العناية المركزة وأخذني هشام إلى الفندق لأبدل ملابسي وأستريح لبعض الوقت، عندما رأيته لأول مرة أنِست لهذا الشبه الذى بينه وبين هيثم، وازداد هذا الأنس بعدما رأيت اهتمامه بأمي

وبمساعدتنا، ذهبنا للاطمئنان عليها فأخبرنا الأطباء أن العملية سوف تتم بعد يومين وأن اليوم الذى يسبق العملية لابد لها من الراحة التامة وعدم الانفعال فمنعوا عنها الزيارة، بعد أن أنهى إسلام عمله لحقنا إلى ألمانيا، في يوم إجراء العملية كنت كالتى فقدت عقلها، أروح وأجىء أمام غرفة العمليات لا أهدأ ولا أستطيع أن أضع جسدى على كرسي لأستريح امتدت العملية إلى ما يقرب من الثماني ساعات خرجت بعدها أمى إلى العناية المركزة، أخبرنا الطبيب أن العملية تمت بنجاح وأن كل ما ننتظره هو استجابة الجسم لها، وهذا ما ستحدده الساعات القادمة أو ربما الأيام، لم تفق أمى من سكينتها بل،سكنت معها الأجهزة الملتصقة بجسدها.

وقفت أمام أمي والأجهزة الساكنة مشدوهة، صراخ يأكل ذراتي في صمت وحشٍ خبيث لا يصدر أصواتا حتى لا ينتبه له أحد وهو يلتهم فريسته، أشباح تتراءى لي على جدران الغرفة، تحاول أن تنال مني، تتلقف طيفي، تعبث باتزاني تتقاذفني فيما بينها، ارتعدت من فكرة أني فقدتها، رحت أترنح حتى ارتطم جسدي بجسدها يحاول أن يرافقه مسيرة الموت، كانت معالم الحياة ما زالت تمنح وجهها نضارته، ولكن الطبيب والأجهزة قالوا كلمة القدر التي كتبت من قبل ميلادها، ماتت أمي، ماتت قوتي وسندي، سكن الخزن قلبي فلن يعرف الفرح بعدها لقلبي طريق، وكيف يصل وهي

التي كانت طريقه ومسراه في الليالي عندما كنا نتسامر وتحكي لي حكايات الجدات وأنا نائمة فوق فخذها الغض الحنون، وأصابعها ترتب خصلات شعري، وترتب معه شتات روحي، فمن لي بعدك يا أمي يلملم شتاتي؟

ها أنا وحيدة في بلد غريبة، فقدتك فيها، وكأنني تلك الطفلة التي كانت ممسكة في يدك، وفي لحظة أفلتِها، وتفرقت بنا السبل، فاتخذت إلى ربك سبيلا، وتركتِني أسير سبيل الفقد، أقاسي مرار وحشته، وليله الطويل، وبرودة رياحه الهادرة، وكم سيطول طريقي وليله من بعدك يا أمي؟ كم سأبيت الليالي جائعة؟ فقد فطمت من حنانك، وكنت لا أنام إلا على تنهيداته، قُطع حبلي السري الممتد بين جسدي وعينيك، اللتين كانتا تلقماني الحب، وتسقيانيّ الود، ولن يطيب لي العيش بعدك، أنا متأكدة من أني سألحقك قريبا، لا يمكن أن يكون قدري أن أحيا بدونك، وإن كان هذا قضائي فلن أكون كالأحياء، ربما سأشبههم ولكنني لن أكون منهم.

دخلت مع المغسلين، ورأيت جسد أمي المسجى كقطعة قطن ناصعة البياض، راح كل الوجع الذي كان يسكن هذا الجثمان، حتى مواضع الأسلاك التي كانت يؤرقها أثرها زالت، وكأن القدر يراضيها بإزالة ما كان يكدرها، فقد كانت أمي جميلة تحب نظافة جسدها وتجميله، لم تكن كالنساء اللواتي يهملن جمالهن لأنهن

كبيرات، لا .. أمي لم تكن كبيرة، كانت دائما شابة جميلة ممتلئة بالحيوية والنضارة، وها هي نضارتها وجمالها يصاحبانها إلى القبر ويتركاني وحيدة مع أشباح أحزاني، ألبسنا الكفن لجسدها النحيل، الذي أضعفه المرض ولكنه لم ينل من طراوته، فكانت كقطعة (بونبون) ملفوفة بورق (سولفان) جميلة يا أمي حتي في ثياب الموت، رائعة حتى وأنت تزفين إلى الثرى، وضعوها في صندوق الموتى، وحملها الرجال إلى السيارة لنذهب إلى المطار في رحلة عودتي وحيدة وجثمانها إلى القاهرة، لم تتوقف دموعي منذ رقدت أمي على الأسِرة البيضاء وبت لا أستطيع احتضانها نائمة كما كنت أفعل، وها هي تزداد، وربما لن تتوقف هذه الدموع، كانت بحة صوتي تشي بأن هناك حزناً قبع في حنجرتي، وسيطول مكوثه، كان معي في رحلتي الأولى، صديق أخي وشبيه حبيبي.

في الرحلة الأولى كان هشام قائدا للطائرة، في رحلتنا العلاجية، كانت أمي تسير بجوارى، وفي الرحلة الثانية كان يقود حياتي، فقد طلبني من أمي، التي وافقت وأصرت ألا تدخل إلى غرفة العمليات إلا بعدما وافقت على ذلك كي تطمئن على به كزوجين وكان أخي وليي في العقد، ورفيقي في رحلة العودة مع زوجي، اقترنت به وأنا لا أعلم عنه شيئا.

في موعد لقائنا في الكلية كل عام بعد أن تزوجت تارا كان يصلني على عنوان بيت أبي خطابا منها، حاولت مرارا أن أعرف مصدر الارسال، ولكنها كانت في كل مرة ترسله من مكتب بريد مختلف، لم تكن تريد أن أعرف لها مكانا، حتى علياء قطعت علاقتها بها فلم تخبرها عن سكنها، كنت أحيا عند استلام الرسالة وأموت بعد قراءتها.

جلست في الشرفة أفض المظروف وأقرأ بلهفة قلبي كلماتها:

عندما أسرَّت شفتاك حديثا لكفى، وأنا بملابس الزفاف، بعدما طال بالصمت حديث الأعين، انسالت الكلمات منهن وتساقطت على الشفاه نهرا عذبا فراته، كان الحب فيها مستعرا بلهيب الحيرة، يتساءل في صمت عن حبي فلا يستبين، فما كان له بالجفون مستقرا ولم يستكِن، فصار يفيض من شطآنها حمما يلفح وجنتيك سعيرها، وحين تلقفتها شفاهك وأطعمتها سرًا بالحب يلهث، فأثارت حفيظة بركان يفور بين أضلعك، فما استطاعت إلا لغة روحك أن تبوح، فاستقبلتها برعدة في الأوصال، ولون الحياء فاح بوجنتي، ودمعة خوف ممتزجة ببسمتي فرت من مقلتي، تشي بفزعي أن

تفارقني تلك القبلة، وفزع أن يسمع صوت بوحك عريسى والحاضرين.

انزوى قلبي وحيداً، يناجى طيفك الذى سرى في جنبات الروح بعد أن غادرتنى منصرفا، فى لجة الدمع يسري زورق ليلك فلا شاطئ ترسو عليه آلامك ولا قشة نجاة تمتد لها، فقط رؤى ماضينا تسرى موجا يعصف بموج وصوت الذكرى يترنح يضربني صداه بسوط من لهيب الشوق، يضطرب نبضي ويتخبط في زنزانته يبحث عن خفقاتك التى كانت تمنحه الحياة، فتلطمه جدرانها الباردة برياح التنائي، أين منى الآن لحن كان يعزفه وجودك فى أذني أيامى، أضحى محظورا عن مسامعى، وأنى لصوت نداءاتى أن تسمعه.

لم يكن حبنا سوى سحابة وردية، سكنت ظلها ساعة، فترسم على صدر الطريق خارطة لخطوتنا لا نملك إلا أن نسير على خطوطها، تكتب تاريخا كان، في عمرنا لحظات، ولكنها عمرا لقلوبنا، وإن زلت أقدامنا فانحرفت عن مسيرته، تعيدنا كسِيري القلوب، محترقة رءوس أكبادنا من هجير الاغتراب، فنعود إلى طريقه ضعفاء لا نملك إرادتنا لا تحمل حجرات قلوبنا إلا سيلا من العذاب يسري فيها دما.

كانت تلك اللحظات التي جلست فيها بجواري في مكان العريس، هى عزاء سنين عمرى التي تلتها، كانت

لثمتك قد وشمت على كفي كما وشمت صورتك على المآقي، كنت كلما اشتقتك لثمت موضع شفتيك، لتعود لى ذكرى تلك اللحظات، وينبض خافقي عندما يذكر كيف كان يناديك وأنت تسير إلى الخلف متخذا طريقك للخروج بظهرك كي تقتنص نظراتك إلي لآخر لحظة، وتمنحنى بها لحظات لقاء سيبقى لي من بعد غيابك.

كانت حكاية حبي خالدة تماثل قصص الحب التي كنت أسمعها في طفولتي وأقرأ تفاصيلها في شبابي، كنت كليلى وجولييت وعبلة، أشبههن تماما، فقط في خلود قصتي، وكأن سر خلود قصصنا كلها إنها لم تكتمل، وكأن الحب الخالد كالشهيد يجب أن يموت ليخلد، ماتت قصة حبي على أرض الواقع، وعاش جسدها حيا داخل صدري، يُرزق من روحي أنفاسا تحمي حياته، ومن نفسي ذكرى، لم أهِل عليه تراب سنواتي لكي أطمس ملامحه، بل عشت أذكي ناره لتظل متوقدة داخل حناياي، لعلها تقتلني فأسكن جوار حبي في عالم الخلود، حيث لا شئ يعكر صفو لقائي به، ولا قيود تمنع سكني إليه، حبي المستحيل كان ممكنا فقط في خيالي.

وفي خيالى كنت ألتقيك، وحين نلتقي، تتراقص السعادة في عينيّ وتذهب أحزاني التي كنت قد جمعتها بعد كل خذلان منك إلى رَبع خالٍ في أقصى ذاكرتي،

تنتظرني هناك لحين خذلان آخر فترسلني لألقاها من جديد.

ظلت الذكريات ساكنة روحي لا تغادرها، باقية فيها بقاء الخلود، نائمة كأميرة تنتظر قبلة حب حقيقية توقظها، وتبقى هكذا، حتى يلوح في أفق الخيال طيف من نحب فيغازلها فتفيق داخل الأوشاج، تهرول كأم فقدت صغيرها وأخبروها عن مكانه، تروح وتجيء في مكانها لا تهديها الخطوات، ولا ينصفها العقل في معرفة الطريق إليه، ولكنها تتشمم رائحته فتهنأ بهاك العطر، ولا تهدأ إلا بأن ترتشف رحيق وجنتيه لتروح في غيبوبة أخرى حتى حين.

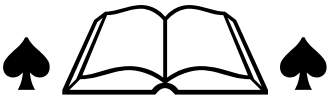

-٢١-

بعد أن غاب مسعد زوج نسمة بحثنا عنه في كل الأقسام والمستشفيات، حاولت باتصالاتى أن أعرف إن كان معتقلا فلم أجد له أي أثر عرفت بعدها أن هناك معلومات عن أنه هرب إلى ليبيا مع بعض الهاربين الذين قاموا بأعمال إرهابية، وتم تصويرهم بكاميرات الجيش، فر هاربا..

أخبرت نسمة بما فعل، فلم أجد منها أي أسف على غيابه، مرت الأيام فوجدتها تخلت عن ملابسها السابغة مكتفية بملابس محتشمة، أظهرت لها فرحتى بهذا التغير وسألتها كيف تخليت عن مظهرك الأنيق، وأنت من كانت تقف أمام المرآة تتأنق ولا يمكن أن تتركها إلا وهى متأكدة من أن هيئتها كما تحب أن تكون من جمال وأناقة، وتصففين شعرك كمصفوفة رونق فوق رأسك؟

ترقرقت دمعة في عينيها وقالت:

- حاولت إخفاء ما يدعو الذكور للتحرش بي، هذا هو السبب في ارتدائي ملابس تخفى جمالى.

مسحت بيدى دموعها وعانقتها، استطردت حديثها:

- لكن ما ارتديته لم يحمِنى ومازالوا يتحرشون بي رغم ملابسى الفضفاضة، ويسمعونني كلماتهم التي تهتك سترى وتنتهك جسدى وأنوثتى.

ندت منها شهقة ألم وأكملت حديثها:

- حتى زوجي ينتهك جسدى بالضرب إذا خالفته مدعيا أن الضرب مذكور في القرآن للمرأة التي لا تطع زوجها.

أفزعني ما باحت به لأول مرة:

- كيف يضربك ولاتخبريننى؟

وماذا أقول؟

- إنه اختيارى الذى أنا مسئولة عنه، مازلت أذكر رفضك لارتباطي به عندما تقدم لخطبتى، وقولك إنه ليس كفئاً لى، لم أفهمها إلا بعدما ضربني لأول مرة، عاتبته بعدها عندما طلبنى ورفضت أن يمسسنى، قلت له كيف لك أن تستبيح جسد امرأة بالتقبيل وقد أذللت نفسها وأهنتها، كيف تنتظر أن أمنحك لمسة جسد أهنت نفسه، كيف تقبل ما اعتبرته مهينا، القبلة تقديس وتكريم، ألا ترى المسلم يقبل الحجر الأسود؟!

ألم تر مسيحيا يقبل صليبه؟!

أما رأيت يهوديا يقبل مبكاه،أو صابئا أو مشركا يقبل معبوده؟

أنت لا تعرف قيمة القبلة ولا تعرف الحب.

أتعرف ماذا كان رده؟

قال لى:

- أنت امرأة ناشز أفسدتك روايات أخيك؛ وقام بحرق رواياتك ومنعنى من أى قراءة سوى القرآن.

لم أكن أستطيع أن أذكر لكم ما يفعل بى حتى لا أضيع ابني فقد هددنى بأنه سيأخذه ويسافر ولن أراه مرة أخرى.

أما الآن وابنى في حضني فلا أخشى شيئا، فهو كل ما لى.

*****

اليوم موعد رسالتها، أصبحت أبيت ليلتها في بيت أبي كي أتسلم الخطاب بنفسي، ليتها تخبرني بأحوالها، ليتها تقول إنها سعيدة، أو تذكر أسماء أولادها، وسنوات دراستهم، بنين أم بنات، لماذا تبخل علي بأن أفرح بسعادتها؟ تشقينى رسائلها قدر ما تسعدنى بأنها ما زالت تحبنى، لأننى أدرك كم هى بائسة.

لم أكن أقرأ رسائلها إلا في شرفة شقة الزمالك في هدوء كي لا يرى أحد أثرها على عيني ونفسي.

كتبتْ:

لطالما مر طيفك فتهافتت علي عبيره الذكريات، وأهدتني لقيمات من رحيقه أسكن بها نبض قلبي المرتجف كلما هم بالتذكار، والآن لم تعد ذكرياتك تسكن الروح، بل أصبحت أنا أسكن فيها، كشرنقة الفراشة أقدها ببراثن اللهفة لأطير هنا وهناك، أفتش عنك، في أفلامك، وافتش عني في حكاياتها، فأجد ملامحي طاغية على كل بطلاتك، وتفاصيلي صارخة في ملامحهن، حتى أن هويتي أنا هي الجلية المتخفية خلف هويتهن، عرفت أنني أنا بطلة كل رواياتك، وعرفت أنك تسكن ذات الشرنقة، وأنك تتتبع رحيق ذكرياتي، وتهفو لطيف مني يلوح في أفق حياتك، بل أنت من تصنع الطيف فتجسده بشرا سويا في بطلاتك، حتى لا يغيب عنك طيفي.

ويبقى لقاؤنا أنا وأنت محض خيال، ثم نعود من لقائنا المزعوم مثقلة أرواحنا بالشوق تمتلئ حقائبنا بالحنين مترعة كاسات أعيننا بالوجع، ولكننا لا نجد الطريق إلى اللقاء سوى هذا الخيال.

وجدت في آخر أفلامك عقدي الذي كنت أهديتنيه ذات يوم ورددته إليك عند الفراق، رأيته يتراقص على جيد البطلة التي تحمل ملامحي الظاهرية، والتي أصبغت عليها روحي، فرأيتني يوم قلدتني العقد، وكأنه اليوم وليس بالأمس البعيد، ها أنت تحتفظ بأشيائي، لا تفرط فيها، كما فرطت في صاحبتها يوما، هل ندمت؟

هل تلوم نفسك على ما اقترفت في حقي وحقك؟

قرأت قصتك التي لم أعشها معك.

علمت كم تشتاقنني، ومدى وجودي في حياتك، فأنا لم أزل ذكرى قابعة في روحك، نائمة في الحنايا، تنتظر قبلة الحب الحقيقي.

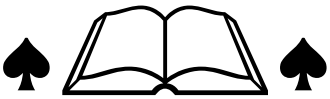

-٢٢-

تكرر لقائي بميس وجدتها في الشرفة تحدثنا كثيرا، حروفي الشاردة تتلاشى أمامي، أنشب أظافري في بريق الأفكار فلا تنتزع من سناها ومضة، تتلاشى فأتكوّر على روحي ثم أنتفض إلى الشرفة لألتقي ميس هناك، لكنها لا تظهر، تراودني لهفة الانتظار، تطل جدتها وتقيم حوارات لا أسمعها وتحكي قصص شبابها التي لا تعلق بطرف أذني، أسألها عن ميس فأخبرتني أنها عند والديها تقد الهزيمة هدأتي، لست أدري ما سر لهفتي للقائها ربما ذلك التدفق الذي ينتاب أفكاري بمجرد حديثنا معا، هي مشيمة الحلم ومهد الفكرة، فجأة قالت الجدة إن ميس أرسلت لها رسالة تفيد حضورها بعد دقائق، انتشلتني هذه الرسالة من هُوة الشرود .. دخلت الجدة وذهبت أنا لأصنع فنجانين من القهوة لي ولميس، وعندما انتهيت منهما وجدت رسالتها على الواتساب تستدعيني إلى الشرفة، دلفت لأجدها مشرقة تنتظرني، وأنفاسها تضطرب لصعود السلم فهي لا تفضل الأسانسير إلا عندما تكون مع جدتها.

ألقيت السلام وناولتها فنجانها.

- ها .. قل لي ماذا تريد، قالت لي جدتى إنك سألت عني.
- نشرب القهوة ثم نتكلم .. مالك تتسرعين.
- نشرب ونتحدث سريعا .. عندي موعد بث مباشر بعد نصف ساعة.

قلت بتعجب:

- هل أنت مذيعة؟

ضحكت قائلة

- مذيعة وممثلة وكله ولكن من هنا .
- كيف؟
- إذاعة خاصة على تطبيق التيك توك.
- إذا لابد أن أشاهدك.
- تابعني إذا لترانى.

فتحت هاتفي باحثا عن قناتها وتابعتها، شربت القهوة بسرعة واستأذنت لتستعد.

مكثت في الشرفة أحتسي قهوتي ثم مررت على فيديوهات القناة فشاهدت موهبة لم أكن أتصور أن من أراها هي ميس، كانت تصنع وجوه كل الفنانين رجالا ونساء وتمثل بهذا مشاهد من تأليفها.

أتاني إشعار البث المباشر، وكانت ميس بوجه أمينة رزق ولكنها في مشهد كوميدي من تأليفها،

أضحكتني حتى سالت عيني بالدمع، ومنحتني فكرة سأضيفها لفيلمي.انتهت من بثها ثم أتت إلى الشرفة، أظهرت لها إعجابي الشديد بموهبتها التي أدهشتني، وأخبرتها بمفاجأتي.

*****

كانت جلبهار نائمة فهمست لها أن تستيقظ لأنني أريد الحديث معها، قامت ولحقت بي في البهو، رأتني حليق الذقن وقد بدلت ثيابي (الإسلامية) بملابس عصرية فأصابتها الدهشة، قلت لها أن تستعد للهرب، لأنني أعددت له منذ فترة، لم أخبرها حفاظا على سلامتها، لم تصدق وأطبقت شفتيها على كل كلمات التعجب، غير أن عينيها قالت كل شيء، أمرتها بالتخفف مما تريد حمله وألا تثقل علينا.

أسرعت بارتداء ملابسها وأحكمت نقابها ولم تأخذ إلا القليل من ملابسها وتركت كل ملابسي لأن ممو أخبرني إنه سيتكفل بإحضار المزيد من البنطلونات والسترات، خرجنا قبل الفجر ضمانا ألا يكون في طريقنا أحد غير نقاط الحراسة التي أعلمها جيدا فقد درست الطريق المؤدى إلى مكان خلوتي عندما فكرت فيه بحيث لا يستطيع أحد الوصول إلينا، مررنا بأزقة وشوارع ودخلنا منازل خالية استطعنا من خلال قرب شرفاتها التنقل من منزل إلى منزل بدلا من السير في

الشوارع المكشوفة، واختبأنا خلف المعسكرات التي كنت أعرف جيدا كيف يولى حراسها وجههم فاستقبلنا وجهة غير التي يولونها، فتمكننا من الحركة دون أن يشعروا بنا، التقينا بممو في مكان خلوتى فأخذنا بسيارتى التي كانت منحتنى إياها الدولة وكنت تركتها معه صباحا، سرنا بالسيارة في اتجاه الهروب، كانت بقع المياة المتجمدة التي كانت تغطى الطرق سببا في انزلاق السيارة، في هذه الأثناء سمعنا صوت قصف وكنا معتادون عليه، من قِبل طيران دول التحالف ومن قِبل الطيران الروسى، ولكن هذه المرة كان القصف مركزا بصورة غاشمة محاولة منى لتفادى انقلاب السيارة ارتطمت بعمود إنارة وبعدها لم أدر شيئا.

غبت عن الوعى لوقت ليس بالكثير، وأفقت على عطر جلبهار وألم ينتاب رقبتى نتيجة الحادثة بينما لم يصب ممو أو جلبهار بأية بإصابة، كما أن السيارة لم تأخذ منا وقتاً لإصلاحها وإعادتها للسير من جديد، حمدت الله وأكملنا الطريق، كان المقرر أن نكمل الطريق إلى أحد المنازل النائية كمرحلة أولى من مراحل الهروب، نمكث فيه لمدة يومين حتى يتم تجهيز سيارة لنقلنا ومعنا مجموعة من الهاربين الذين كان من بينهم نساء وأطفال، وكان على ممو أن يعيد سيارتى إلى مكانها بجوار بيتى، بعد أن سمعنا القصف كان لابد من الخروج بسرعة وبلا انتظار، كان سبيلنا ميسر نتيجة

الانشغال بالقصف، ومحفوف بالمخاطر للسبب نفسه، رغم أننا ابتعدنا بالسيارة واقتربنا من مدينة الباب إلا أن الخوف كان رابعنا في طريقنا، ممو كان ممن يعرفون جيدا حقول الألغام، فسار بنا يتفاداها، حانت لحظة الاندفاع هرباً إلى أمام، ولا مناص من إزاحة تلك الشرنقة السميكة الخشنة التي أدخلت نفسي فيها راضيا، وها هي ذي غايتي بادية، مثل دودة تحرر نفسها من قزٍ أفرزته حولها، صرنا بين الدروب عاريين من أي وسيلة للتخفي مرعوبين ترتجف أرواحنا، أحاول ألا أظهر خوفي كي لا أزيدها رعبا فوق الذي ملأ كيانها وطفح عرقًا يتصبب من كل ذراتها، أحس بأنني لأول مرة أختبر الخوف، وأجرب الرعب الحقيقي، كان خوفي عليها أكثر مما أخاف على نفسي، وأرتعب عليها وما كنت أريد أن أصدّق أنه من الممكن أن يصلوا إليها بعد أن نجحت في الفرار بها من بين براثنهم، متشبثاً بالأمل في إنقاذها بأظافري وأسناني، حتى الرمق الأخير، أتمنى لو تمكنت من حملها فوق كتفي طيلة مسافات الهروب فلا أكلفها عناء الركض، أتمنى لو أخفيها تحت جلدي فلا يصلوا إليها إن هم ألقوا القبض علينا.

*****

كان ممو يستعد للهرب ولكنه أجبر على أن تتقدم ساعته، كانت زوجته قد سبقته إلى أهلها، وبقى هو ليتم هروبي ويكون هو آخر الهاربين فكتب له أن يكون ثالث ثلاثتنا، مررنا بقرية تل بطال ومنها اتجهنا إلى قرية دابق التي كان أميرنا يخبرنا بأنها هي التي ستتم عليها حرب نهاية العالم بين معسكر الكفر والإيمان، تتراءى لى وأنا في طريقى مشاهد الموت التي كنت أشاهدها في الدولة القميئة، مشاهد القصاص وتنفيذ الحجود (الجلد والرجم وقطع الرقاب) التي كان لابد أن نشاهدها بل ويعتبر مذنبا من يتخلف عنها، وكانوا يبررون ضرورة الحضور بأنها تمنح العبرة والعظة والردع.

شاهدنا إقامة حد القتل على امرأة كردية رفضت قبول الإسلام، أُسرت و معها رضيعها الذى لم يكمل يوم الأسر أسبوعه الأول، باعوها لأبو أنس طبيب الأمير سعودى متزوج من هيام العراقية، وليلى السورية وفتحية السيدة التونسية، وله زوجة بريطانية من الفتيات المسلمات المهاجرات الى الدولة المسلمة التي كنت أسهل لهم طريق الإسلام والوصول إلى روضته الوارفة كما كنت أخبرهن، كان الطبيب رجل يحب التغيير ويتندر بأنه يصنع بزيجاته هيئة أمم متحدة، وكانت رنكين تخدم في بيوته الأربعة، يتعاملون معها بلا رحمة هو وزوجاته لغيرتهن منها، ولأنها بالنسبة اليهم كافرة مستباحة اتفقن الزوجات على أن ينتقمن منها ويتهمونها

بالسرقة وليصدقهم أبو أنس كانت كل واحدة منهن تخبره على فترات متباعدة أن هناك شيئاً فقدته من مصاغها في ذات اليوم الذى تأتيها فيه رنكين للخدمة، كان طفلها قد بلغ الخمسة أشهر فانتقم منها أبو أنس عندما واجهها فسبته وسبت زوجاته وقالت إنها أشرف منهن ولا تسرق، بعد تعزيرها (سجنها) في بيته لمدة ثلاثة أيام بدون رضيعها، ثم صنع لها وجبة وضعها أمامها وقال لها:

- كلي بالهناء.

تطلعت رنكين في الطبق فوجدت رضيعها على هيئة دجاجة مشوية، طاش عقلها فأطبقت أسنانها على رقبته حتى نزف جسده دماه، وسيقت رنكين للقصاص.

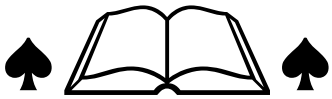

-٢٣-

أبلغني عبد الجليل عبر رسالة واتساب أنه موجود بالقاهرة قادما من بني شنقول بأثيوبيا حيث يعمل، وأنه سيكون في شبرا اليوم، اتصلت بخليل المراكبي ليبكر في الحضور لينقلنى إلى بيت أبي، وأنه الليلة كلها سيكون معى إلى الفجر احتفاء بعبد الجليل، وطلبت منه تجهيز متطلبات السهرة من شاى وقهوة والشيشة التي يحبها عبد الجليل ورفاقنا.

عبد الجليل محفوظ أبن عمة أحمد فاضل، ولكن هناك بون كبير بينهما، آراؤهم مختلفة، توجهاتهم مغايرة، كان عبد الجليل أقرب إلى خلق الحاج محمد فاضل صالحين وأيضا الأكثر شبها في الملامح، عندما كنت صغيرا كنت أرى صورة عمى محمد في شبابه أظنها لعبد الجليل، توطدت صداقتنا بعد أن سافر أحمد إلى قطر وهجر مصر، في نهاية الثمانينات كنت بدأت اهتم بالسياسة وكان هو بوابتي لها، يأخذني معه في ندوات الأحزاب المعارضة، تعلمت منه الكثير، متابعة الأخبار وقراءة الجرائد، ثم النقاش معه في المقالات التي اقرؤها، كنت أعبر الى شرق السكة الحديد وأذهب لبيته سيرا على الأقدام فقد كان سكنه بجوار مصنع الملابس

الذى يعمل فيه والده الذى أتى من قرى المنوفية بحثا عن عمل، حيث إنه لم يكن مزارعا أو صاحب أرض في قريته، تعرف على والد أحمد الذى كان يعمل في مصانع ياسين للزجاج عن طريق أحد الأصدقاء المشتركين. عندما أخبره أن لصديقه أحمد أختا وعرض عليه أن يتزوجها ليكون أسرة، فتعرف عليه وتم الزواج وأنجب عبد الجليل وثلاث بنات، انضم إلى حزب العمل وكان إبراهيم شكرى هو مثله الأعلى في الوطنية وكنت أذهب معه لجلساتهم.

وفى إحدى هذه الجلسات تكلموا عن إثيوبيا وعن السد الذى تفكر في إقامته على النيل ومحاولة تغيير مجرى النيل، ومنه عرفت أن النيل اسمه باللغة الأمهرية (أباي)، لم تكن فكرة السد وليدة الألفينيات بل ترددت منذ الستينيات، بدأت الفكرة بعدما أقام الرئيس جمال عبد الناصر السد العالى رغم معارضة الإمبراطور الإثيوبي هيلاسلاسي دون استشارة دول المنبع، اعتبر الإثيوبيون ذلك استهانة بهم بالرغم من أنه كان لهم الزعيم والملهم.

جاءنى خليل المراكبي وانتقلت معه إلى ضفة النيل الأخرى، ذهبت إلى بيت أبي لأجد خبر حكم المحكمة لنسمة بالتطليق من زوجها الذي غاب منذ ثورة ٣٠ يوليو، تغيرت نسمة بعد غيابه وبدأت تتكشف لها

حقيقة التدين الزائف الذى كان يدعيه مسعد وإخوانه، عادت لقراءة رواياتى، ومتابعة الأفلام والمسلسلات، مع محافظتها على صلاتها واهتمامها بحفظ القرآن، وجدتها في حجرتى تمسك بآلة الكمان تعالت ضحكتى قائلا:

- ما هذا يا اختاة؟! عزف في بيتنا؟!

تركت الآلة وقامت احتضنتنى وقالت:

- يا فنان لابد أن أتعلم أصولها .. منذ أيام التحقت بصف تعليم الكمان بدار الأوبرا ..
- ياللهول ماذا تقولين، أليست المعازف حراما يا أختاه.

أشاحت بيدها ثم أمسكت بالآلة تحتضنها وتعزف عليها:

- الآن أستمع لكل معزوفة وكأنها تسبح، استمع معي كل نغمة تقول الله الله الله.

ابتسمت وقلت:

صدقت .. أليس كل صوت تسبيحا؟! .. أليس صوت الرعد تسبيحاً؟! صوت الطيور تسبيحاً؟!، كيف لا يكون النغم الجميل تسبيحاً؟! هذا ما كان يعلمنى عمى محمد فاضل.

سأتركك يا فنانة وأذهب إلى عبد الجليل.

تركت الآلة وسألتنى:

- متى عاد من سفره؟

حدثنى منذ أيام وأخبرني بعودته واليوم تفرغت للقائه .. اشتقت والله للقاءات زمان.

- ما أخبار تجارته في إفريقيا ..
- هو يعمل في الاستثمارات العقارية مع شريك إماراتى، أعلم أن تجارته ناجحة لوجود الشريك الإماراتى أما استثمارات المصريين فقد حدثت لهم خسائر كبيرة نتيجة العمليات العسكرية التي نشبت في تيجراي والتي اتهم الاثيوبيون المصريين أنهم السبب في نشوبها لأنهم المستفيدون من ذلك لقرب تيجراى من بني شقول المقام على أرضها سد النهضة.

تركت نسمة تقوم بأعمال المنزل ودخلت إلى أمي وأبي لأسلم عليهما وجدتهما_كما تعودا منذ خرج أبى على المعاش_ يجلسان على الكنبة الإسطنبولى يستمعان إلى أم كلثوم ويشاهدان الأفلام القديمة، بجوار الحائط المتشقق نتيجة تفجير مبنى أمن الدولة الذى يجاورنا على النيل، بسيارة مفخخة، لم يطِعنى أبي في السكن معى بالزمالك وترك هذا المنزل الذى أصبح خطرا، قال:

- وإن قذفوا بيتى لن أتركه، لن يهزمنى إرهاب، يكفي أن هزم ابنتى وأخذ زوجها.

-٢٤-

نزلت من بيتنا مررت بشارع أبو الخير في طريقى للنفق الذى سينقلنى الى شرق السكة الحديد حيث بيت والد عبد الجليل القديم، وجدت زحاما شديدا أمام المركز التجارى الذى افتتح مكان صيدناوى، سألت عن سبب الزحام ؛ فأخبرونى أن المركز يقوم كل خميس بعمل عرض وتنزيلات لجذب الزبائن؛ ابتسمت واستكملت طريقى، اختنقت عند مرورى من النفق من كثرة وجود البائعين به بالإضافة إلى المارة، أسرعت خطوتى كي أنهيه بسرعة، وصعدت السلالم ركضا.

أمتار قليلة وصلت بعدها لبيت عم محفوظ الذى وجدت عبد الجليل ينتظرني أمامه، ليأخذنى ونذهب إلى المعدية، أخبرني في الطريق أن بيت عم محفوظ بات مزدحما لا مكان فيه لقدم، بعد أن عادت إليه إحدى أخواته التي كانت تسكن جزيرة الوراق، بعد أن تقرر تطويرها وتغيير اسمها إلى مدينة حورس.

تأسفت قائلا:

- التغيير لن يكون للوراق فقط يا عُبد، علمت أن التغيير سيمتد ليصل إلى دمنهور شبرا ستزول ذكرياتنا، ستختفى المعدية.

- التغيير هو الشيء الثابت الوحيد.

قالها عبد الجليل بهدوء من اعتاد فقدان الذكريات ثم أردف:

- ربما نحزن لغياب أماكن كان لنا بها ذكريات ولكن التطوير أمر مهم بالرغم من خسارة الذكرى.

سرنا إلى المعدية ورغب صديقى أن يسير في حوارى دمنهور شبرا ليتذكر ذكرياتنا معا مررنا بجوار مستشفى التأمين الصحي وقرأنا الفاتحة لسكان مقابر دمنهور وقال رفيقي:

- أتذكر يا إياد مباريات الكرة الشراب التي كنا نلعبها هنا جيلا بعد جيل؟
- أذكر جيدا وأذكر عندما كنت صغيرا وأجلس لأتابع مباريـاتكم وأحرس أحذيتكم ثم انطلقنا ضاحكين وقلناها في نفس الوقت (الشباشب).

دخلنا حوارى دمنهور_وكان لكل حارة ذكراها_، مررنا بحارة الجزارين حيث كنا نأخذ كلنا دروس اللغة العربية في بيت الأستاذ عزيز قبل أن تقام مجموعات التقوية بمساجد الجمعية الشرعية، انطلقنا لشارع أبو الخير وكانت ذكرياتنا هي التي تقودنا إلى منزل هيثم وذكرياتنا مع عم شكرى والده الذى كان أحد ضباط

حرب ٦٧ والاستنزاف وأحد أبطال ٧٣ وأحد الضباط الذين رفضوا توقف الحرب ومعاهدة السلام وما بها من بنود اعتبروها استسلاما وإذلالا كما كان يقول لنا عندما كنا نحضر جلساته مع عبد الجليل وكنت ألتقط بعض الكلمات التي ترسخ في ذاكرتي ولم تمحها السنوات.

سألت صديقى:

- أتذكر عندما كنتم تتحدثون عن وعد السادات بتوصيل الماء للقدس ومسجد الصخرة وكنيسة القيامة وحائط المبكى لتكون مياه النيل"زمزماً" للمؤمنين بالأديان السماوية ودليلا على أننا دعاة سلام.
- يااااه أما زلت تذكر؟!
- كنت صغيرا جدا وقتها يا إياد .. أتذكر جيدا طبعا لأن ذات اليوم كنا في جلسة مع الأستاذ إبراهيم شكرى وكالعادة قطعوا عنا الكهرباء وكنا مستعدين بالشموع والكلوبات.

سألنى عبد الجليل عن عم شكرى قلت:

- بعدما أحيل عم شكرى للتقاعد كان دائم الجلوس مع عم حسن زميله منذ كانا في الكلية الحربية، ولكنه تركه وحيدا وانتقل إلى عالم الشهداء الذين ماتوا على فراشهم، بعد أن احتل مرض السرطان كل ذرات جسده بخبث، ثم أعلن عن

وجوده قبل انتهاء الأجل بأسبوع رقد فيه بمستشفى القوات المسلحة بالمعادى.

- رحمه الله برحمته.

مررنا بشارع رقم اثنين أشرت له على دكان عم حسن:

- بعد إحالته على المعاش كان عم حسن يجلس بجوار دكان حلوى الأطفال الذى افتتحه يشترى كل الجرائد اليومية، ليجلس بجواره كل من يمر عليه ويؤنس وحدته ويطالع الأخبار ويناقش عم حسن فيها حتى يؤذن المغرب فيصلى في مسجد القوات المسلحة ثم يصعد بعدها لشقته حيث الوحدة بعد وفاة زوجته وزواج أولاده، عندما تزوج أولاده أصبحت الفيلا لا تناسبه فهدمها وأقام بيتا مكونا من أربعة أدوار سكن شقة من شققه. بعدها تحولت كل الفلل إلى أبراج ذات عمد وأدوار تربو على العشرة.
- رأيت الكثير من هذه الأبراج التي ملأت حوارينا بلا تخطيط ولكننى لم أكن أظن أن يتحول مكان مثل مساكن الضباط إلى هذه العشوائية.

أكملنا الطريق إلى مركز شباب دمنهور شبرا، ورأينا مجموعة شباب يخرجون منه بملابسهم الرياضية وكأنهم يماثلون شبابَنا، خرجنا إلى شارع أبو الخير

واتجهنا يمينا ثم أكملنا الطريق إلى المعدية استقبلنا خليل مرحبا بعبد الجليل وكانت المعدية مهيأة لاستقبالنا، بدأنا بفنجان القهوة الذى يصنعه خليل على لهيب (السبرتاية)، قدم خليل القهوة لعبد الجليل مبتسما وقال:

- ما تاخدني معك يا بيه اشتغل بره

ضحك صاحبى وسأله:

- ولماذا تترك مهنتك ووطنك وتأتى معي لعمل لا تعرفه وبلد لم تألفه.
- اسأل الفنان ما هو عارف كل حاجة .. المعدية خلاص باقى لها أيام أو سنين قليلة وما تكونش موجودة بعد ما تتحول الوراق لحاجة كده خمس نجوم.
- تحول أنت معها إلى سبع نجوم وطور عملك.
- دى حاجة تحتاج أموال يا بيه وأنا على باب الله يا دوب أبيع المعدية وآجي معك وفلوس المعدية هسيبها في البنك تطلع لأبويا قرشين لحد ما أبعت له من بره.

ربتت على كتف خليل وقلت:

- إذا أنت قمت بالتفكير والترتيب لكل شيء .. أتتركني يا رجل وتهجر بلدك.
- والله يا أستاذ مش لوحدي ده كل الشباب عاوز يهج، تعرف إن فيه ليا قرايب بيسيبوا الجامعة

ويهجوا قبل ما يخلصوا ويدخلوا الجيش. يسافروا أي بلد ومش حيرجعوا إلا بعد ما يبقى عمرهم فوق التلاتين ويدفعوا الغرامة .. ساعتها حيبقى معهم فلوس لكن لو فضلوا ودخلوا الجيش حيضيعوا عمرهم.

- نظرنا إلى بعضنا أنا وصديقى ولم نتخيل أن يكون هذا تفكير الشباب قلت بأسف:
- أبعد الثورات التي استرددنا بها بلدنا، وأصبحت في أيدينا بلا تحكم خارجي، وأصبحنا أولي سيادة، واستعدنا مكانتنا التي نرجوها؟!

قال المراكبي:

- كلام الشعارات مابقاش ينفع مع شباب اليومين دول يا فنان .. بعد إذنكم أظبط شيشة البية .. الفحم ولع.

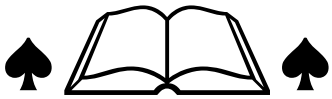

-٢٥-

بينما أرتشف رشفة من قهوتى، ويسحب عبد الجليل نفسا من الشيشة رن هاتفه، استأذن ليرد، ووجدته يحدث شخصا اسمه آسر، أخذ معه موعدا ليلتقيه بعد ثلاثة أيام، سألته بعد أن أنهى حديثه معه:

- من آسر هذا؟
- هو محامي خصم لى بيننا مشاكل ويحاول أن يبيع لى خصمي وأنا أماطله حتى أكسب وقتا، ليتسنى للمحامي الخاص بي أن يصل إلى كل المعلومات التي تساعده في أن يربح القضية، أنت تعرف أن الأساليب الملتوية لا تروقني مهما كانت المكاسب منها، هو محام كبير لكن_للأسف_طرقه كلها غير سوية، عرفني به المهندس فتحي الغريب.

اسم آسر وفتحي الغريب وعمله كمحام أكد لى أنه هو من ظننت، آسر زوج علياء زميلة هيثم، كان من الواضح أنه سيكون شخصا بلا ضمير.

كانت مفاجأتى للميس هي إنها ستعمل معى في مجال الماكياج، وأيضا ستكون البطلة أمامي في فيلمى الجديد، أخبرتها أننى سأجرى لها اختبار كاميرا في الإستوديو وأرسلت لها صورة لمرأة وطلبت منها أن تأتى إلى

مكان التصوير تقوم بعمل الماكياج الذى يجعلها نسخة من تلك المرأة، وأعطيتها حوارا بينى وبينها لتحفظه لنقوم معا بتمثيل مشهدا يضمنا معا، جاءت إلى الإستوديو وأتمت عمل الماكياج وخرجت بنفس الصورة التي أرسلتها لها، كأنها هي_حتى الأداء_،فعندما قامت بالتمثيل لم أشك أننى أمامها هي، ربما صوتها هو الذى اختلف ولكننى لم أشعر بهذا الاختلاف، وكأننى أسمع صوتها يحاورني.

كان الحوار عبارة عن همس بين حبيبين هو آخر ما قلناه ونحن حبيبن أنا وتارا، في مشهد مسرحى صنعته لأخبرها بحبي وطلبت منها أن تمثله معى، ذكرتنى به في آخر رسائلها، والذى أخبرتنى فيه أنها لن ترسل لى مرة أخرى، لأنها أشفقت علي من وحدتى وأنها ستتركنى ربما إن تركتنى أجد حبا يعوض حبها.

قالت الحبيبة بمنطقها العذب كلمات عن الحب، لا تنبغي إلا لمثلها، حين وصفت بخفور حبها.

فقالت:

- أنت جنة عشق، من حدائق وأعناب، الغزل في عينيك عبادة، وتسابيح حب وهوى ..

فقلت لها:

- إن حبي يا صغيرتى منذ الأزل مازال باقيا لم يفنَ، ولم يأتِ به العدم، ولكنه أخذ شتى الصور

فقد كان قبل أن ألتقيك على هذه الأرض "هوى " فهوي بي في متاهة البحث عنك فى كل وجوه من قابلت من النساء، قبل أن ألقاكِ، ثم أصبح "صبوة " فصبوت إلى لقياكِ في غرِ صبايا، و"شغفا " شُغِف بك شغاف قلبي فتمنى أن تسكنيه حين التقيتك، و"وجدا" أوجد في نفسى حديثا لا يصمت عنك أينما حللت أو رحلت، و"كلفا" زاد بكِ ولعي وكلفي كلما نظرت إليكِ فرأيتكِ كل النساء، " فعشقا" جعلك متعشقة في خلجات روحى لا تفارقينها مهما ابتعدتِ، ثم " نجوى " أناجيك في خلوتى، وفي جلوتي، ويحرق الحزن قلبي حين تبتعدين، "فشوقا" ينازع نفسي إليك فيشق صدري حتى وأنت معي، "فصوبا" يؤلم جسدي ونفسي ويعانق روحى لو عن عيونى لحظة غبتِ، " فاستكانة " استكين وأخضع لحبك مذلة يهون فيها أمامك كل شئ حتى كرامتى، "فودا" ألاطف به رقيق إحساسك كي أنال رضاكِ ومحبتك، " فخلة " فتتخللين مسلك الروح منى فلا سبيل إلى ذلك لأحد سواك، "فغراما" أغرمت بك وتعلقت بك كل حواسي حتى صارت لا تعرف إلا أنت ولا تشعر إلا بوجودك أنت، "فهياما" حيث همت بك كما المجنون على وجه عشقي فما عاد لى صبر على غيابك، ارحمي

قلبا أحب فعشق فهام بك. لم أفارق حبك منذ كنت ذرا في عالم الغيب، هكذا حبي كما طائر الفينيق ينهض من تحت رماده فينطلق، لأنه لا يفني وليس يا حبيبتى خلق من العدم.

أكملت حديثها وكأنها قديسة ترتل إحدى صلواتها:

- حبك كان معي وسيظل باقيا، حبك يسكنني فقلبي موطنك منذ الأزل، لم ولن تحصل على تأشيرة للهجرة من وتيني.

كانت آخر كلماتها بجوار مدفأة يسري دفء حرائقها في أوصالنا فصمتنا، وأصغينا لصوت عاشقين خارج زجاج النافذة، وكانت السماء تغرق الأرض قبلات من مطر، كنا نسمع طقطقتها، ونصخُّ السمع معا لإيماءات عطر عناق المطر بتربة الأرض، فكانت تقاسيم وجهها الخجول الذي تمنت أن تمتلك تفاصيله أجمل حوريات الجنة لِما منحته روحها النقية من قداسة وطهارة، اختُصَت بها هي فقط من دون كل الإناث.

تنفست صمتها، وتذوقت نظراتها، واحتسيت تنهيداتها، كنت معها أشعر بوجود كل حواسي، وفي غيابها تنعدم، فأحس بأنني ليس لى وجود.

وقلت:

- عندما يفكر النبض في الهجرة من القلب يضيع في العدم، ويترك القلب خاويا إلا من موته، فماذا

يفعل الجسد عندما تقطع الروح تأشيرة هجرة من ذلك النبض؟!

في كل نبضة يئن بها قلبي ليعيش، إنما هي صرخة نداء لك، ليحياك، فحواسي تفقد إدراكها عندما لا تكونين أنت، مصدر استجابتها.

كانت كلماتي تفوح وتتحد مع عطرها والمطر، والدفء المتسرب من عروقها فيزاد اشتعال المدفأة إحراقا، وكانت طقطقة الحطب لا نفرق بين صوتها، ونبض قلبينا فطبعت على جبينها اللؤلؤي قبلة ستبقى بصمتها عليه حتى نلتقي ذات خلود.

أفقت من حلم يقظتى على الوحدة، والبرد يسكن مدفأتى فهذا الحوار كان بينى وبين خيالها الذى مثلته ميس، ربت على نبض شوقى، ومسح بعض من دمعات حنيني وندمي التى لم تجف منذ غيابها.

كانت هذه الكلمات التي مثلتها معي ميس هي آخر ماكتبته فى نهاية الفصل الأخير فى روايتى، بل التى كنت أعيشها مع حبيبتى فى حياة خلقتها بين السطور.

قمت بتدريبها تمثيلا صوتا ليصل إلى النبرة الأقرب لصوت تارا حتى موعد التصوير.

ميس كان في عينيها كل العشق وقوة الصبر، لم يكن سهلا أن يصنع منها إياد مسخا من تارا، عروس

"ماريونيت" يحركها بحركاتها وينطقها بمنطقها، عندما أنهت آخر مشاهد الفيلم بينها وبين إياد انهارت، كانت كلمات الحب التي قالها وقالتها تعرف جيدا أنه يقصد بها امرأة أخرى، فقد وجد أمامه "تارا" صوتا وملامح ومشاعر، أخذته حالة التمثيل إلى واقع يتمناه، ظن أنه حقا أمامها، أفاق بعد انتهاء المشهد، متعجبا، كيف صنعت ميس ملامح تارا بهذه الدقة وهى لم ترها وهو لم يخبرها بشيء عن"تارا"، مسحت المكياج الذى يحمل ملامح تارا، وفاجأته بأنها على علم بحقيقة صورة الزفاف التي تسكن بجوار سريره، وأنها قرأت رسائلها حتى أخراهم التى صنع منها هذا المشهد.

- أنا هى من حدثتها وطلبت منها خادمة، لم تكن جدتى، كنت أصور فيديو بوجه جدتى في نفس اليوم الذى تحدثنا فيه، وفرحت بأنك رغم عملك كمخرج لم تكشف حيلتى، فأكملت معك الحوار وكأننى هي، جدتى ماتت منذ عام، كانت آخر من لى بعد أن ماتت أمى في حادثة ومات بعدها أبي بأعوام قليلة مريضا بالسرطان، أنا من قمت مع الشغالة بتنظيف بيتك يا إياد ورأيت الصورة وقرأت كلماتك في الخلفية (إياد وتارا .. صورة وهمية من حفل زفاف حقيقي) ورسائلها التى تقبع في درج الكومود تحت الصورة، لم أحتج إلى الكثير من الذكاء لأفهم ما حدث فقد قمت

بعمل هذا المشهد في فيلمك (على جسر الندم) حيث قام بطلك بما قمت به والتقط صورة مع حبيبته يوم زفافها؟ غير أنها كانت موجودة في كل أفلامك وحاضرة في رواياتك.

كفكفت ميس دموعها، مواصلة حديثها الباكي:

- الآن انتهت مشاهدى وأكملت مهمتى التي أردتنى لها يا إياد.

أدهشت المفاجأة إياد وألجمت لسانه وأخرست الكلمات، وقف مشدوها حاول أن يبرر لها، أن ينفى استغلاله لها، أن يعترف لها بحبه لها الذى اختلط بحب تارا، لكنها لم تترك لذلك مجالا، ألقت ما في جعبة قلبها من وجع وفرت من أمامه.

*****

أرهقنا السير وصاحبتنا نوارس الرحيل كانت تجزُّ فضاء البحر بأجنحةِ يائسة من الوصول إلى أفقه البعيد، مفرودة لأقصي مدى، تلوح للشمس الآتية من خلف المنافي، تمد الشمس أصابعها النحيلة، تتثاءب كي تستفيق من رقادها، تقاوم غلواء التكوّر الأزلي، تتنسم ريح البحر المنسيّة وسط خواء الزمن الذي أرهقه انتظار سطوعها، يعبث الضوء بالرمل البلّوري، يلمع في تجاعيدِ خطوات التيه التي ارتسمت عند الغسق الصحراوي وأزالتها رياح الصمت الساري خلفنا،

يحاول إخفاء آثار عجلات السيارة، كي لا يصل إليها قصاصي الأثر، عاصفة حنون أتت مباغتة صمت الصحراء لتخفينا بين ذراتها، فما استطاعوا أن يلمحوا لنا أثرا وما اسطاعوا أن يواصلوا الاندفاع خلفنا، فما كان منهم إلا أن ولوا أدبارهم، وحزموا أمرهم للعودة حتى حين، كان الملح يرسم على ساحله موجات تتراقص فوق جسد الشاطئ المسجى، يسرجُ فوق صدفاته صمت أبدي، فلا صوت ولا صدى تهمس به للموج، كنا طيلة الليل نلهث أمام عناكب الصحراء التي تعدو خلفنا، وكان جسدانا بلغ بهما التعب مبلغه، ترفق بنا المناخ فأرسل لنا نسمات بلّلها مطرٌ قزحي القطر يحمل ألوان الفرح بنجاح هروبنا، أما أحلامنا فقد أجهضها ليلٌ غائم الرؤى، كسيح الخطى، فوق صرير مساء عج بأهوال المطاردة، تنفذ كوابيسه كالنيازك الشّرهة التي تثقب ستائر الليل الحالكة، استيقظت فوجدت جلبهار مستندة على كتفي ترتجف إثر بقية من كابوس رافق ليلها، تركنا ممو ليلحق بزوجته، كان قد اختار لنا طريقا لا يمكن أن يفكر أصحاب الدولة أننا سلكناه وهو الطريق إلى الساحل السورى ومنه نستقل باخرة، وكان قد جهز لنا أوراق ثبوتية مصرية لجلبهار ولي باسم آخر، علمت أن الرحلة ستستغرق حوالى عشرين ساعة حتى نصل برا إلى مصر، بعد أن نعبر معبر جابر نصيب بين سوريا والأردن ثم نصل إلى

ميناء نويبع ومنه إلى مدينة السادس من أكتوبر، اتصلت بإياد من رقم سوري اشتراه لى ممو بعد أن وصلنا إلى دمشق، أخبرته بموعد وصولنا، وكان في استقبالنا.

*****

وصلنا إلى بيت إياد في الزمالك وكانت في استقبالنا جارته ميس، رقيقة أحبت جلبهار وكانت لها أخت حنونا، استأذنت لتذهب وكانت قد أعدت لنا الغداء، لكننا لم نكن نحتاج إلا لنوم هادئ بأمان، فمنذ خرجنا من الرقة لم نشعر بلحظة أمان، كان الخوف يلازمنا حتى في الرحلة الأخيرة، كنت أخاف أن يتعرف أحد عليَّ حتى بعد حيل التخفى التي احتلت بها في تغيير شكلى وهيئتى، علمت من إياد أن ميس (ميكب آرتست- وفنانة) أو كما قال (سبع صنايع والبخت والع) وأنها ستقوم بدور بطلة فيلمه الجديد، وحاول معي ليقنعني بالقيام بالتمثيل معه ظنا منه أن هذا الفيلم سيكون أكبر دليل على عودتى واستقامة أفكارى.

عادت إلينا ميس بعد ساعات محملة بملابس لجلبهار ولى أيضا أمسكت بيد جلبهار وقالت:

- تعالى معي لنرى هل سيعجبك ذوقى أم لا ونترك هؤلاء الرجال لحديث خاص أراه في عيونهم منذ التقوا. سألنى لماذا لم أخبر هشام وأمي بعودتى، أمى التي مرضت بسبب ما فعلته

وكان سكن هشام وزوجته معها هو ما خفف عنها أوجاع غيابي، ما كنت أستطيع أن أعود لبيت أمى بسبب ما حدث معى وأننى الذي أصبحت متورطا في جرائم إرهابية، حتى ولو أننى لم أكن فاعلا مباشرا، فأنا متورط فيها رضيت أم أبيت، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، إن تلك التي سكنت بيت أمى مع هشام هي المرأة التي أحببتها وغابت وعندما رأيتها مرة أخرى كانت تتأبط ذراع أخي كزوجة، رأيتها في المطار عندما أخبرني بموعد عودتهما من ألمانيا، منذ ذلك اليوم لم أعد إلى بيت أمى، الذى ما كنت أتركه حتى بعد شهرتى، كان لى سكنى الخاص لكنه لم يكن إلا استراحة وليس بيتاً، بيتى في مساكن الضباط هو فقط ما أشعر فيه بالسكن، تذرعت بكون أخى وزوجتة عرسانا وأن وجودى سيكون نشازا وغبت عن البيت، وبعدها كان غيابى الأكبر عن نفسي.

*****

كان لمواجهة ميس لإياد بما تعرفه بمثابة مواجهة لإياد مع نفسه، لم يذهب خلفها، وعندما عاد إلى البيت وجد أضواء شقتها مطفأة، ظلت مظفأة لأيام امتدت الى أسبوع، قضى إياد آخر ليلة منه على المعدية، ونغمات الموج تتهادى من حوله، أحس بنسيم

أنفاسها تلاحقه، ربما كان في حاجة لهذه الصفعة التي لطمت بها روحه، وزادت لطمات الغياب من شوقه إليها، اعترف أمام النيل، أنه أحبها وأنها شغلت تفكيره، ليس بغيابها فقط ولكنه حتى في حضورها، كان لها نصيب من انشغاله وتفكيره، انتظاره لفيديوهاتها، ومتابعتها، عودته مبكرا إلى المنزل ليتحدث معها في الشرفة بعد أن كان يقضى سهراته دائما خارجه، نعم كانت تشبع أوقاته بالشجار وبالسخرية منه عندما كانت تلعب دور الجدة العجوز وتعامله كطفل وتمعن في تعنيفه، تذكر كل هذه المواقف وابتسم لوجهها الذى أشرق على صفحة النيل الفضية.

رن هاتفه لإشعار من قناتها، ابتهج وبدأ في تشغيل الفيديو، كانت تقوم بدور من أدوار الجدة، وتعيد حديثها معه تمثيلا، بعد أن انتهت من بث الفيديو، اتصل بها، فأخبرته أنها غادرت مصر إلى دبي، حيث تعيش خالتها الوحيدة، وأنها لن تعود إلى مصر.

نهرها بقوة:

- كيف لا تعودين، كيف تتركينني.

قالت برصانة لم يعهدها من تلك الفتاة المبهجة:

- الأيام السابقة كانت شافية لى من وهمي، ربما مع الأيام تشفى أنت أيضا من ظنك الذى أثاره فيك غيابى، ربما خسرتك كحبيب، ولكن لن أخسرك صديقا.

قال بحزم:

- اسمعي يا جدتى الشقية سأقوله فرمانا الآن وفور أن أنتهى من إلقائة أجدك أمامي هنا، افتحى الكاميرا لتريني كما تسمعين الفرمان ..

فتحتها فقال:

- المعدية التي أخبرتك عنها تشتاقك معي عودى سريعا لتزفنا معا ويشهد النيل.

*****

كان لابد أن أسلم نفسى للسلطات المصرية، اعتبروني كنت محتجزا في الرقة ولست إرهابيا، في مقابل أن أطلعتهم على أسرار جيش الدولة التي كنت مسئولا عنها، وعندما طرح إياد فكرة الفيلم أيدها المسئول الذى تحاور معنا، ولكنه أرجأ موعد الإعلان عن ظهورى في الفيلم لحين يبلغنا بالموعد المناسب، أما عن جلبهار فعرض علينا البحث عن ذويها ولكنها رفضت لمعرفتها المصير الذى ينتظرها من أهلها إن هي عادت بعدما تعرضت له في السبى، وطلبت أن تكون مواطنة مصرية فقط، فعرضت عليها الزواج وقبلت واستخرج لها المسئول أوراقا رسمية باسم مصري ليتم عقد قراننا، بعد أن اطمأننت على وضعى السياسى، ذهبت إلى استراحتى التي أصبحت بيت الزوجية الذى ضمنى وجلبهار، وعادت لى أموالى في

البنوك، التي كانت فرضت عليها الحراسة، وعدت لأمى وأخى الذى أنجب من نهير ولدا أسماه هيثم، كان هذا أول لقاء لي بنهير بعد أن غادرت الحفل فتشردت بعدها وضللت طريقى إلى أن اهتديت إلى جلبهار، أسعدنى أن وجدت الحب يرفرف على بيت أخى بزوجة عشقته بعد أن عاشرته فوجدت منه الحب والود، وأحببت طفلهما عندما أمسكت به فوجدت صورتي صغيرا بين يدي، قلت لأمى ونهير مازحا:

- مستر هيثم لا يمكن ينتهى.

*****

بعد غيابى عرفت علياء سر زواج آسر بسميرة، أصيبت بانهيار عصبى دخلت على أثره إلى مصحة للعلاج النفسي، علياء التي كان ملؤها حيوية ونضارة أصبحت هزيلة غير قادرة على السير، شبه غائبة عن الوعى لا تكاد تعرف من يزورها، أحبت بجنون من استغلها واستخدم عشقها للوصول بمعارف والدها الرأسمالى الكبير وماله إلى طموحه في التعامل مع رجال المال والاستثمار، ثم كان جزاء سنمار هو مكافأتها على ما جناه من مال وشهرة، أخبرنى طبيبها أن زياراتنا لها ستزيد من فرص الشفاء، فمنذ حضرت إلى المستشفى ولم يزرها أي من عائلتها، الكل منشغل بمصالحه، حتى زوجها كان آخر من زارها وأول من غاب.

تداولنا زيارتها أنا وإياد مع جلبهار، ربما تشفى بهذا الحب الذى سنمنحها منه جرعات مع كل زيارة.

طلب منى عبد الجليل لقاء على المعدية يكون فيه معنا هيثم وأخبرنى بأنه سيكون معه صديق، والتقينا وقت الغروب الذى أحب، وكان خليل كعادته مستعدا ويزيد اهتمامه بالتفاصيل عندما يعرف أن عبد الجليل بيه سيكون ضيفى، ربما يقنعه بأن يأخذه معه على إثيوبيا، المهم أن يركب الطائرة ويصنع الملايين في بلاد بره.

كان لقاؤنا يشبه لقاءاتنا القديمة وحواراتنا السياسية، دار الحديث عن النيل الذى كان خامسنا فكان يهمس لنا على جسد المعدية ويسر لنا حديثا، لا يسمعه إلانا، يخبرنا أنه خالد لا يزول، كانت فكرة أن يأتي يوم ولا يكون فيه النيل ساريا بين ضفافه مستحيلة التوقع، عرفنا عبد الجليل على ضيفه المهندس سيد السيد، مهندس مدني.

سرد لنا بداية التفكير في عمل السد الإثيوبى ودور كل رؤساء مصر من السدود التي كانت تحاول إثيوبيا إقامتها، ذكر موقف عبد الناصر وخلافه مع محمد نجيب ومشاجرتهما لتجاهله محاولة إثيوبيا بناء سد على النيل مستغلة انشغال مصر في معركة الجلاء، عندما علم من صلاح سالم الذى كان من شرق السودان،

فأوكل له نجيب ملف السد ليتفاوض فيه مع اثيوبيا، وكتب عبد الناصر خطابا لإمبراطور إثيوبيا هيلاسلاسي قال فيه " نطالبكم بوقف بناء سد (تيس أباي) لأننا نعتبره تهديدا لحياتنا مما يستدعي تحركا مصريا غير مسبوق.

التقط منه عبد الجليل طرف الحديث وأكمله:

- نصح أيزنهاور حينئذ هيلاسلاسي ألا يستهين بتهديدات ناصر، فقلل ارتفاع السد من مائة اثنى عشر مترا إلى أحد عشر مترا، وغير موقع إقامته بعيدا عن مجرى النهر. كان دائما حديث القوة ومواقف الحزم تروقني، فبدا على وجهي الفخر من موقف عبد الناصر، علقت على الكلام قائلا:
- قرأت أن هناك اضطرابات في إثيوبيا مصر متهمة بإثارة القلاقل ببنى شنقول، لماذا لا نجعل الاتهام واقع ويكون هذا أحد الحلول بلا حرب.

ضحكت والجميع وقال عبد الجليل:

- هي فكرة جيدة وموفرة وناجعة، ألم تُثَر القلاقل الربيعية في بلادنا فلماذا لا نصنعها.

سأل هيثم:

- ألا يمكننا ضرب السد قبل استكمال الملء.

قال المهندس السيد:

- حتى إن فكرنا في ضرب السد لابد لنا من قنطرة لنصل إلى إثيوبيا، المسافة كبيرة ولابد من تأمين كاف للسلاح، نعم نحن نملك السلاح والقدرة على ذلك ولكن لابد لطول المسافة أن يكون هناك غطاء يحمي السلاح.

ابتسمت عندما التمعت في رأسي فكرة أن أقوم بتصوير جزء من الفيلم في إثيوبيا وعندما أخبرتهم بها.. نظر ثلاثتهم إلي باعجاب، أتبعه المهندس سيد وعبد الجليل بنظرات متبادلة وكأن هذا ما جاءوا من أجله.

أكملت طرفتي وقلت:

- ربما بعد ذهابنا إلى هناك يبحثون عن السد فيجدوه تحت المرحاض.

انفجرنا في الضحك وسمعنا خليل فجاء مبتسما بالشيشة يمنحها نسمات من مروحته قائلا:

- الفحم زهزه.

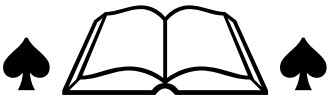

002 - 01061635162
002 - 01503570075
ranyhmtwlyblat@gmail.com

تزلزل كيان معرفتى، فتصدعت كل أركانه، ولاتزال هي الصخرة المعلقة التى تسكن ذاكرتي، كل لحظاتنا معا أموت وأحيا عليها، أروح في غيبوبة فتتراءى لى فى أحلامى، عروس من الحور تضيء طلتها ظلام غيبوبتى، فأفيق على صورتها تحتضننى، وتبكي فيسيل القهر مع دمعها فوق جبينى، تتعثر يدى فى خطواتها للمسها فتسقط مشلولة الأمل، فتنفيني نظرات الحزن في عينيها إلى غيبوبتى مرة أخرى، لم يعد في قلبي إلا الشغف بحبيبتى التي أجهضت حبها لى، وتبرأت من جنينه الذي نبت فى قلبها، لا ترى عيناى إلا بريق عينيها السرمدي وشعرها يسترسل على كتفيها كخيوط الشمس الغجرية الوضوح، وبراءتها المصلوبة أمام تهورى وحكمي الظالم، الذي لم تفتح فمها لتدرأ أيا من التهم التى بنيت عليها محاكمتى، وقطعت بها أواصر حبنا، وحكمت من خلالها بإقصائها عن حياتى- أقصد إقصاء حياتى عنى - فأنا بدونها لا أحيا ولن،ولاأزال معلق النظر بنافذة ما حدث، ولا يزال قلبى مصلوبا هناك على سياج لقائنا يقضم أصابع الندم،ولم أزل في.غيبوبتى أصحو وأنام على ذكراها، يستمعون إلى مناجاتى لها دون أن يفهموا من حديثى شيئا، ولا أكاد أبين حروف اسمها التى ما كان لسانى ينطق سواها.

اصدارات الكاتبة

قصص تائهة (مجموعة قصصية)
٢٠١٧
همس الحواس (شعر) ٢٠١٨
خبز الملائكة (رواية) ٢٠١٩
على لهيب شمعة (جائزة احسان عبد القدوس في الرواية ٢٠١٨)
نقوش على جسد ناعم (رواية) ٢٠٢١
رِيّ السراب (مجموعة قصصية) ٢٠٢٠

تصميم منى شومان

010616135162